بالطـول والعـرض

رحلة إلى بلاد الخواجات

تقديم : محمود السعدنى
عاصم حنفـى

بالطول والعرض

مهرجان القراءة للجميع
للطفل. للشاب. للأسرة
جمعية الرعاية المتكاملة

مهرجان القراءة للجميع ٩٩

مكتبة الأسرة

برعاية السيدة سوزان مبارك

(سلسلة الأعمال الخاصة)

بالطول والعرض رحلة إلى بلاد الخواجات

تقديم : محمود السعدنى عاصم حنفى

الغلاف
والإشراف الفنى:
الفنان: محمود الهندى
المشرف العام:
د. سمير سرحان

الجهات المشاركة:
جمعية الرعاية المتكاملة المركزية
وزارة الثقافة
وزارة الإعلام
وزارة التعليم
وزارة التنمية الريفية
المجلس الأعلى للشباب والرياضة
التنفيذ : هيئة الكتاب

على سبيل التقديم

وتمضى قافلة «مكتبة الأسرة» طموحة منتصرة كل عام، وها هى تصدر لعامها السادس على التوالى برعاية كريمة من السيدة سوزان مبارك تحمل دائمًا كل ما يثرى الفكر والوجدان ... عام جديد ودورة جديدة واستمرار لإصدار روائع أعمال المعرفة الإنسانية العربية والعالمية فى تسع سلاسل فكرية وعلمية وإبداعية ودينية ومكتبة خاصة بالشباب. تطبع فى ملايين النسخ الذى يتلهفها شبابنا صباح كل يوم .. ومشروع جيل تقوده السيدة العظيمة سوزان مبارك التى تعمل ليل نهار من أجل مصر الأجمل والأروع والأعظم.

د. سمير سرحان

اذا كانت كل الطرق تؤدى إلى روما، فكل الظروف التى أحاطت بالكاتب عاصم حنفى كانت تؤدى به الى السخرية. السخرية من نفسه ومن الناس ومن الزمان. فهو ولد ونشا وعاش فى حى من اغرب أحياء القاهرة، حى يلاصق من الناحية الغربية أرقى وافخر احياء العاصمة وهو حى جاردن سيتى، ويجاور من الناحية الشرقية حى المدبح وتلال زينهم والبغالة وشارع السد، أما الحى نفسه فهو سكلانس عجيب من كل الألوان والأصناف، صغار موظفين على عمال على عدد كبير من أصحاب الدكاكين. هو نفسه ابن صاحب دكان، والده صاحب محل ترزى فى حى الغالبية الساحقة من سكانه يرتدون الجلابية، ومن يرتدى منهم ملابس افرنجية يكتفى بالبنطلون. وأشهر شخصية فى الحى كان يدعى احمد الانجليزى، فقد كان شديد الشبه بعساكر الانجليز، وكان يرتدى البنطلون والقميص والنظارة البيرسول، ويقف على ناصية شارع قصر العينى وقفة تامل وتحفز وتاهب لأمر خطير. ثم فجأة يصيح بصوت كالجاعورة.. البلى بلى باى، ويكرر العبارة أكثر من مرة، ثم ينصرف ليحتل موقعا جديدا يطلق خلاله صواريخ.. البلى بلى باى!!

ومع أنه لا يوجد فى أسرة عاصم فلاح واحد أمسك بالفاس واستعمل المحراث، فقد فرضت عليه الظروف أن يدرس الزراعة. هو نفسه لم يساله أحد عن رأيه فى دراسة الزراعة، ولكن مجموعه فى الثانوية العامة هو الذى قاده إلى هناك. وهكذا وجد عاصم حنفى نفسه يحمل شهادة جامعية وعاطلا عن العمل. فلا هو يصلح للخياطة فى دكان الوالد، ولا يصلح للزراعة التى درسها فى الكتب. حظه الحسن أنه من مواليد ثورة يوليو، عاش فترة الأحلام العريضة والتحديات الكبرى، واتصل ببعض المثقفين وتاثر بهم ولكنه اكتشف بعد قليل أن الشعارات شىء والواقع شىء آخر. عمل

موظفا بعض الوقت في مصنع باحدى مدن الدلتا. واكتشف أن أكثر الناس تشدقا بالاشتراكية هم أشدهم نهما الى المال العام، وأن أكثر العمال تشنجا هم أقلهم عطاء وأبعدهم عن الثورية. وعندما انتابه القرف من سوء الأحوال، استقال من المصنع، وآثر أن يعيش عاطلا في القاهرة. وفي بداية حكم السادات وجد له مكانا في جريدة تابعة لمنبر من المنابر ووجد نفسه في الصحافة. ولكنه أخطأ البداية الصحيحة، فانهمك في كتابة مقالات ثورية عن الحنجورى المتشامخ والشواشي العليا للبرجوازية. ثم غادر مصر في أواخر السبعينات، وعرضوا عليه العمل في الخليج حيث الهدوء والفلوس، ولكنه رفض العرض. وذهب الى لندن وعمل محررا في مجلة ٢٣ يوليو، ومن أول مقال (ثورى) كتبه، اكتشف العبدلله أن مصر في محنة، بدليل انها خلت من نوع (البقال) الأستاذ. أما البقال فهو مكتشف نجوم كرة القدم في عصرها الزاهر، كان عبده البقال يجوب الحوارى والنجوع والكفور بحثا عن مواهب جديدة. وكان له عين صقر لا تخطىء الموهبة. وكان جاهزا لتوريد كل أنواع المواهب، في الهجوم والدفاع وحراسة المرمى. وعلى من يريد الاتصال به أن يتصل به عند البقال، فلم يكن في بيت عم عبده العارف والخبير جهاز تليفون.

وبموت عبده البقال خلت ملاعبنا من المواهب. يبدو أن الحال نفسه وصل الى مجال الأدب والصحافة بعد أن رحل جميع البقالين فلم يعد يوجد منهم أحد. وعندما جاء عاصم حنفي الى لندن كان لايزال يلتزم بأسلوب الحنجورى. ولكن العبدلله لمح بين سطور الحنجورى عينا ناقدة وساخرة، وروحا قلقة لا يعجبها العجب ولا الصيام في رجب. وأشرت له على الطريق فاندهش واستنكر، ثم جرب نفسه مرة ومرة فإذا به يعثر على نفسه. وصار عاصم حنفي من الكتاب الساخرين، واستطاع أن يفرض سخريته على الصحف

المصرية والعربية أيضا. وكما عاش فى حى المتناقضات واكتوى بنارها، إلا أنه لم يلجأ الى الخداع لكى يعيش، فلم يكذب ولم ينافق ولم يبحث عن باب للارتزاق. وعندما اشتغل بالصحافة لم ينضم لجانب ضد جانب ولم يرفع شعارات جوفاء. ولكنه انحاز الى جانب الشعب والتزم الصدق ودافع عما يعتقد انه الحق. ثم وصل عاصم حنفى الى قمة التناقض، عندما التقى ببنت سويسرية واسعة الثقافة صارمة النظام. احبت عاصم حنفى ابن حى الموارد وقررت أن تتبعه الى آخر الأرض، سويسرية نقلته من أكل الطواجن والاكتفاء بأكل السلاطة، وحرمت عليه البدلة أم صفين ونقلته إلى البنطلون والسويتر، وعلمته أن الحياة ليست مناظر أو مظاهر ولكنها سلوك ثم مبدأ وهدف محدد. السويسرية تزوجت عاصم حنفى، مع أنه فى علم الأجناس ينتمى إلى الجنس المضطهد فى الولايات المتحدة. لعل هذه التوليفة التى فرضتها عليه الحياة هى التى شقت طريقه فى عالم السخرية، ليصبح واحدا من أبرز كتابها من الجيل الوسيط.

يبدو اننى نسيت نفسى فتكلمت أكثر مما ينبغى وفعلت نفس ما يفعله البلياتشو الواقف أمام خيمة السيرك، يشرح للزوار مزايا البلياتشو فى داخل الخيمة، ولو أنصف البلياتشو الذى فى الخارج، لترك مكانه وسمح للناس بالدخول الى الخيمة ليروا ويحكموا بأنفسهم على مدى مهارة البلياتشو الذى فى الداخل.

والآن أدعوكم إلى دخول الخيمة لكى تروا وتحكموا بأنفسكم على قلم عاصم حنفى وهو يقفز على الحبال. والعبد لله واثق انكم ستضحكون من الأعماق، ولكنه ضحك ـ لسوء الحظ أو لحسن الحظ ـ كالبكاء!

محمود السعدنى

جراتسيا يامدموازيل

١



ولأننى أتكلم انجليزى.. فشر ترجمانات سقارة والهرم.. وأجيد الفرنساوى على اعتبار أنها لغة الأرستقراطية والعائلة الكريمة.. فأقول بابا وماما و«باردون» و«مرسى».. فقد اتخذت قرارا تاريخيا.. بأن أشد الرحال إلى أسبانيا.. عسى أن يفتح الله علينا بلغة ثالثة تنفع فى الشغل.. خصوصا أن ثلث شعوب الأرض تتكلم أسبانى.. وغالبية دول أمريكا الجنوبية والوسطى لا تتكلم سوى لغة بيكاسو ولوركا وسلفادور دالى.. وهى سبعة أضعاف الشعوب التى تتكلم انجليزى.. وعشرين ضعف الشعوب الناطقة بالفرنساوى. وقلت فى نفسى.. إننى لو تعلمت أسبانى.. فربما ترقيت فى الشغل.. فأحتل منصب رئيس قسم الشئون الأسبانية بالمجلة.. أو ربما يطلبون رئيس تحرير للأهرام أو الأخبار.. بشرط أن يجيد لغة أسبانى.. فأكون أول الناجحين..

ولأننى ناصح بدرجة جيد جدا.. فقد حسبتها جيدا.. وعندما سألتنى المدموازيل فى شركة الطيران عن المدينة التى أفضلها فى أسبانيا.. قلت لها غرناطة.. أو جرانادا كما ينطقونها.. وقدرت أن غرناطة ليست على خريطة السياحة العالمية.. وأسبانيا التى تستقبل كل سنة ٣٠ مليون سائح.. تدعوهم لشواطىء «كوستابرافو» وجزر الكنارى وماربيلا.. ومن المؤكد أن غرناطة ستكون أرخص.. لأن الاقبال عليها أقل..

لكن المدموازيل فى شركة الطيران.. صححت لى حساباتى.. عندما أكدت أن السفر والاقامة فى غرناطة سيكون أغلى طبعا.. لسبب بسيط.. هو أن المدن السياحية تعنى توافر شبكة من طائرات «الشارتر» الأرخص.. وتعنى

وجود فنادق وموتيلات أكثر.. عكس الحال في غرناطة.. التى يقبل عليها السائحون من أهالى اسبانيا فقط.. والحكاية أن أهالى اسبانيا يهجرون المدن السياحية الأسبانية فى الصيف.. ويؤجرون مساكنهم مفروشة للسياح.. ويذهبون الى غرناطة.. للفسحة والانطلاق.

وقالت لى المدموازيل: إنك لو كنت ترغب فى التعرف على أسبانيا الحقيقية.. بعيدا عن دوشة السياح.. وعن زحمة محلات الويمبى الأمريكاني.. والسجق الألماني.. والبيتزا الطلياني.. واذا كنت تريد أن تأكل بالأسباني.. وتعيش بالأسباني.. وتنام بالأسباني.. فعليك بغرناطة.. ولا تنس أن غرناطة هى درة أرض الأجداد فى الأندلس.. ثم إنها آخر القلاع التى سقطت بسقوط العرب فى نهاية القرن الخامس عشر.. وهناك سوف تقابل أولاد العم.. وبنات الخال..

سحرتنى ابتسامة المدموازيل.. وثقتها فى نفسها وبلادها.. وشدتنى فكرة لقاء بنات الخال.. فقلت أجرب مغازلة المدموازيل.. فقلت لها إننى مستعد للذهاب إلى آخر الدنيا.. بشرط أن أقابل هذه الابتسامة من جديد.. فقالت وهى تسلمنى تذكرة السفر: جراتسيا..

وهكذا تعلمت الكلمة الأولى فى قاموسى الأسباني.. جراتسيا.. تعنى شكرا.

●●

فور خروجى من مطار غرناطة.. وهو مطار صغير بالمناسبة . يشبه مطار الأقصر.. فور خروجى من المطار.. أدركت حجم الورطة التى وقعت فيها.. فأنت فى درجة حرارة ٤٢ تماما مثل الأقصر وأسوان.. مع الفارق انك فى الأقصر سوف تقابل من يدعوك لحاجة ساقعة.. ليشد من أزرك فى هذا الحر الرهيب.. أما غرناطة فالشوارع خالية تماما من المارة والسيارات.. مع أننا فى عز الظهر.. وإشارة المرور مفتوحة.. والعسكرى طفشان.. والمحلات مغلقة بالضبة والمفتاح.. لا أثر فيها للحياة.. وكأنها مدينة هجرها

أصحابها على سبيل العند..! احتجاجا على تشريفي إليها..

وعندما حاولت أن أسأل سائق التاكسى الذى ينقلنى من المطار للفندق.. أجابنى بعبارة طويلة لم أفهم منها شيئا.. فقلت له أسكته: جراتسيا..

وأدركت أننى أواجه مؤامرة من النوع الثقيل.. وميزتى الحقيقية.. أن أنفى يشم المؤامرات على بعد ٢٠٠ ميل.. وما أن تقترب المؤامرة من جاذبيتي المغناطيسية.. فتصبح على بعد مترين فقط.. حتى يفقد أنفى حساسيته.. فأقع فيها مثل الشاطر.

واستبعدت طبعا أن تكون حكومة الحزب الوطنى طرفا فى المؤامرة.. بالاشتراك مع مدموازيل شركة الطيران.. لأنها حكومة طيبة وعلى نياتها.. ولابد أن تكون أمريكا شخصيا متورطة فى تلك المؤامرة اللئيمة.. التى تسببت فى إخلاء المدينة من سكانها.. وقررت الهروب فى أول فرصة.

فى الأوتيل.. حاولت التفاهم مع أخينا موظف الاستقبال.. لكننى اكتشفت أنه لا يتكلم سوى الأسبانية.. مع أنه «أوتيل» سياحى.. فقلت له «جراتسيا».. ووجدت أنه من المستحيل أن أتفاهم وأن آكل وأشرب وأنام.. بكلمة واحدة.. هى جراتسيا.. فجلست فى بهو الفندق أضرب أخماسا فى أسداس.

وعيب أسبانيا.. أنها تتكلم أسبانى.. أقصد أنها لا تتكلم سوى الأسبانية.. فلا تتحدث الانجليزية لأنها فى حالة خصام معها.. بسبب مشكلة جبل طارق.. الذى تحتله بريطانيا مع أنه جزء من الأراضى الأسبانية.. ومن الواضح أن أسبانيا تقاطع اللغة الفرنسية.. على اعتبار أنها فى حالة حرب.. بسبب التنافس التجارى.. وهى المنافسة التى بدأت بحرب الخوخ.. عندما غزت أسبانيا أسواق أوروبا.. بالخوخ الأسبانى المبكر.. فطردت فرنسا من أسواقها التقليدية.. لأن الخوخ الفرنسى يتأخر قليلا.. وهاجت الدنيا.. وندد كتاب الحكومة الفرنسية.. بأسبانيا التى سمحوا لها بدخول السوق الأوروبية.. فإذا بها تتجرأ وتنافس دولة عريقة

فى السوق مثل فرنسا..

ومنذ أسابيع.. اشتعلت حرب السمك.. بين أسبانيا والفرنسيين.. الذين أخذوا علقة ساخنة من صيادى أسبانيا.. الذين اكتشفوا أن الفرنسيين لا يكتفون بالصيد من مياههم الاقليمية.. وإنما يصطادون من المياه الأسبانية.. بشباك مخالفة للمواصفات من حيث طول الشبكة وسعتها.. فهاج الصيادون الأسبان.. وخرجت مراكبهم فى عرض البحر.. تهاجم مراكب فرنسا.. بل وأخذتهم العزة بالنفس.. فقاموا باختطاف سفينة فرنسية بمن عليها.. فى واقعة لاتكرر سوى فى شرقنا الأوسط السعيد..

ولأن ربكم مع المنكسرين جابر.. فبينما أنا واقع فى حيص بيص فى بهو الفندق.. مسكين وحالى عدم.. أحاول أن أضع كلمة «جراتسيا» فى جملة مفيدة.. بما يعنى الأكل والشرب والنوم والفسحة.. اذا بخواجة انجليزى يدخل إلى البهو.. ويجلس أمامى.. ويقول لى بانجليزية سليمة: هاللو..

وكدت أرقص فرحا.. وكدت أخذ الخواجة بالحضن.. لولا خوفى من مرض الايدز.. وحكيت له عن مخاوفى من المؤامرة الأمريكانى.. التى أخلت المدينة من سكانها.. ومن إصرار كل من قابلتهم على الحديث بالأسبانى..

ضحك الخواجة بوقار.. ثم فسر لى الحكاية..

والحكاية أن غرناطة تحترف النوم ظهرا.. نظرا لطبيعة الطقس الحار.. الذى يلعب دوره فى عاداتهم وتقاليدهم.. ومع أن أوروبا كلها تبدأ العمل فى الثامنة صباحا.. وحتى الخامسة عصرا.. وتتوقف ظهرا للغداء لمدة ساعة.. تقضيها فى الشوارع حيث محلات «التيك أواى» أو فى المطاعم.. فإن أسبانيا تختلف.. والعمل عندهم يبدأ فى التاسعة صباحا وحتى الثانية بعد الظهر.. لتقفل المحلات أبوابها.. ويهرب الناس إلى البيوت.. يتناولون طعام الغداء «البيتى».. ثم ينامون ساعة أو ساعتين.. وفى السادسة.. تفتح المحلات والمصالح الحكومية أبوابها من جديد.. لينتظم العمل حتى العاشرة مساء.

قال لى الخواجة: انك لو أردت أن ترى الأسبان على طبيعتهم.. فعليك بالصبر حتى ساعة العصارى.. فتتكسر حرارة الطقس.. ويبدأ المساء والسهرة..

وأما عن مشكلة اللغة.. فهى محلولة.. لأن جميع عساكر البوليس فى أسبانيا.. يجيدون لغتين أجنبيتين على الأقل.. ومن المؤكد انك تستطيع التفاهم معهم بالانجليزية أو الفرنسية..

ـ هل فهمت يا جاهل؟!

والعبارة الأخيرة لم ينطقها الخواجة الانجليزى.. لكننى شعرت بها على طرف لسانه..

●●

تحسرت على القاهرة زمان.. فى ساعة العصارى.. فغرناطة وبدون مبالغة.. هى صورة من القاهرة التى كنا نعرفها حتى الخمسينيات والستينيات.. الشوارع والأزقة طراز المبانى.. والناس فى الطرقات..

بل أن هناك منطقة اسمها القيصرية.. ولاحظ الاسم العربى.. هى صورة طبق الأصل من الغورية وخان الخليلى.. ذات الطابع الاسلامى الواضح.. وفانوس رمضان الذى نعرفه فقط فى الشهر الكريم.. يستخدمونه هنا طوال الوقت.. وهو معلق فوق النوافذ والبلكونات والمحلات.. ومشربيات القاهرة الفاطمية هى الطراز السائد للنوافذ.. والسيراميك فى مداخل البيوت والمحلات بنقوش اسلامية واضحة. وأبواب البيوت هى صورة مصغرة وبالكربون.. من بوابات القاهرة القديمة.. كباب الفتوح والمتولى.. والمطرقة برأس الأسد.. ورأس الثعبان.. على الباب..

بل إن البضاعة المفروشة فى أزقة القيصرية الملتوية.. هى نفسها بضاعة خان الخليلى.. مع لمسة أسبانية خاصة.. ومن الواضح أن هناك اصرارا وتشبثا حقيقيين بالطراز الاسلامى.. فالحى هو حى قديم.. يضم أكثر من مسجد تحولت فيما بعد إلى كنائس.. ويضم مدرسة اسلامية كبيرة..

تحولت إلى جامعة في القرن الثامن عشر.. ويضم عددا من الحمامات الشعبية النادرة.. وقد أعاد الأسبان تجديدها..

وبعد أن اعترفت منظمة اليونسكو.. بأن غرناطة تضم عددا من الآثار الاسلامية الهامة.. منها قصر الحمراء الذى سنتحدث عنه فيما بعد.. قرر الأسبان تحويلها إلى متحف تاريخى مفتوح لتكون مزارا اسلاميا.. ومع أن غرناطة مدينة فى دولة ليبرالية.. تؤمن بالحرية الشخصية.. فإنه ليس من حق صاحب المنزل أن يبنيه على مزاجه الخاص.. والمبانى الجديدة.. تقام على نفس الطراز العربى القديم.. البيت من دور واحد أو دورين والقبة على السطح.. والشرفات عربية الطراز.. والمشربيات على جميع النوافذ..

لا يملك الواحد منهم أن يفعل مثل الاخوان جيران مسجد سيدنا الحسين.. أو جيران الأزهر الشريف.. الذين يملكون الذوق والفلوس والنفوذ.. بما يمكنهم من هدم البيت القديم ذى الطراز الخاص.. لتقام بدلا منه عمارة أسمنتية سخيفة الطراز.. دون أن يملك أحد أن يقول لهم تلت التلاتة كام..

وانسجمت تماما وأنا أسير فى حوارى القيصرية.. وشعرت بالفرح والانبساط وجو الأسرة الكريمة.. وأنا أرى الشحاتين والمتشردين وماسحى الأحذية.. بل وجامعى السبارس.. فهتفت من أعماق قلبى: سبارس.. شحاتين.. متشردين.. أحمدك يارب.. وتمنيت لو أن خالتى فى الدور الثانى.. قد أتحفتنى بطشت غسيل.. أو حلة طبيخ بايت.. فوق أم راسى.. لتكتمل السعادة.. ويدوم الانشراح.. ولكى أشعر اننى أمشى فى حوارى السيدة والمنيرة.. بين ناسى وبقية أهلى.

وللحق فإن الشحات فى القيصرية.. هو توأم للشحات فى الحسين.. فهو يستجدى ويستعطف.. ويدعو لك نصف ساعة بعد أن تعطيه المطلوب.. وهو عكس شحات أوروبا.. الذى يشحت بالموسيقى.. دون أن يكلف خاطره بأن يقول لك لله: وفى لندن بالذات الشحات قليط.. يأتى إليك وهو لابس بدلة

بالشيء الفلانى.. ويشحت حسب التسعيرة.. فيطلب «جنيه استرلينى» علشان يفطر.. يعنى خمسة جنيهات.. بالعربى الفصيح.. وبالسعر الرسمي..

وللأمانة.. فليس كل من فى القيصرية شحاتين وماسحى أحذية.. فهناك شابات وبنات تشرح القلب.. وأفندية وبهوات وهوانم وهناك سائحون مثلى.. وهناك أيضا مطاعم ومقاه جميلة.. وهناك أيضا رجال البوليس.. الذين هم يتكلمون لغات.. والذين مستعدون للقيام بشئون الترجمة من أجل خاطر عيون السياحة والسياح.

وللأمانة.. فإن رجل البوليس الأسبانى.. خبير اللغات الأجنبية. كان عظيم النفع بالنسبة لى.. وقد دخلت مرة أحد المطاعم لكى أتناول طعام العشاء.. فاعتذرت لى صاحبة المطعم العجوز بأنها لا تستطيع أن تقدم لى قهوة.. لأن الوقت وقت عشاء.. فقلت لها بلغة الاشارة.. اننى لا أرغب فى تناول القهوة.. واننى أرغب فى العشاء.. ثم قلت لها لكى أبهرها: جراتسيا..

فقالت لى بعصبية واضحة.. مفيش قهوة.. عشاء وبس.. فقلت لها مرة أخرى.. إننى لا أرغب فى القهوة.. وإنما أنا أطلب العشاء.. ثم قلت لها من جديد: جراتسيا..

فخرجت إلى الشارع.. وعادت وفى يدها رجل البوليس.. وقد كان رجلا عاقلا نبيها.. استمع لى مرة بالانجليزية.. ومرة أخرى بالفرنسية للتأكيد.. وقلت له اننى شربت القهوة مرتين هذا المساء.. وكل ما أرغب فيه هو أن أتناول العشاء.. ولم أنس طبعا.. أن أقول له: جراتسيا..

طبطب على كتفى رجل البوليس برقة وحنان.. وتحدث مع السيدة.. يترجم لها ما أقول.. ومن الواضح أن ترجمته كان لها فعل السحر.. لأن السيدة العجوز دخلت المطبخ بسرعة.. ثم عادت ومعها «اثنين قهوة».. وفاتورة الحساب..

بنات ألف ليلة ٢

فى قصر الحمراء



هبط طارق بن زياد إلى الأندلس.. بسفينة حربية أحرقها خلفه.. وهبطت أنا بطائرة جامبو.. لم أستطع إحراقها.. نظرا لاجراءات الأمن غير العادية.. ووقفت على الأرض الأسبانية أهتف.. وقد أخذتنى النشوة: البنات من ورائكم.. والبنات من أمامكم.. فأين المفر؟! وقد سحرنى دفء البنات فى المطار.. بالشورت الساخن.. لمواجهة الحر الرهيب.. ومن قبلها أخذتنى رقة المضيفات فى الطائرة.. وكرم الضيافة عندهن.. وقد التفت حولى ثلاث من المضيفات.. يتولين شئون الأكل والقهوة والمشروبات البريئة وغير البريئة.. وشعرت بالزهو والامتلاء.. فتمنيت الذهاب إلى التواليت.. لكنى تراجعت خوفا من أن تصحبنى واحدة منهن.. فى مبالغة غير مسبوقة.. فى كرم الضيافة.

وميزة البنت الأسبانية.. انك معها تشعر بالائتلاف والاندماج بسرعة.. وتكاد تحس أن بينكما ودا وعشرة وحبا وخصاما وكلاما قديما.. وكأنها بنت الجيران.. أو زميلتك فى الجامعة أو الشغل.. أو ربما كانت ابنة عمك.. أو بنت السيدة خالتك.

وجمال البنت الأسبانية من النوع الهادىء المخصوص.. ويختلف تماما عن الجمال الأرستقراطى للبنت السويسرية.. أو الجمال الفاجر للبنت الفرنسية.. أو الجمال المتعالى للبنت الانجليزية.. والمهم أن بنات أسبانيا أكثر من رجالها.. وأنهن قد لعبن دورا هاما فى كتابة تاريخ أسبانيا.

والأرقام تؤكد أن من بين الأربعين مليون مواطن أسبانى.. هناك ٢٣ مليون أنثى.. فى مواجهة ١٧ مليون ذكر.. يعنى عندهم والحمد لله.. فائض

فى النساء.. يقدر بستة ملايين واحدة ست.. ويقولون إن هذه مشكلة حقيقية.. ولو تزوجت الستة ملايين بنت.. من ستة ملايين ولد أجنبى.. لتسبب الوضع فى اختلال الخريطة السكانية الاجتماعية هناك..

وزمان.. تسبب الزواج من أجنبى.. فى اشعال أول ثورة شعبية بعد فتح الأندلس بأسابيع قليلة.. والحكاية انه بعد استقرار الأوضاع فى الأندلس.. عقب فتحها على يد طارق بن زياد وموسى بن نصير.. قام والى افريقيا القائد موسى بن نصير.. بتعيين ابنه عبدالعزيز.. واليا على البلاد.. وأحب عبدالعزيز بنتا أسبانية بيضاء فتزوجها.. ومن الواضح أنها كانت جميلة جدا.. لأنها أقنعت عبدالعزيز.. بأن يتصرف بشكل غير حضارى.. بمقاييس الحضارة زمان.. وأن يتبنى قضايا المرأة فى وقت مبكر.. لأنه مشى معها فى الطريق.. ويدها فى ذراعه.. وكانت تحضر معه الولائم والعزومات وعشاء العمل.. عندما يستقبل الملوك وسفراء الدول الأجنبية.. كانت تشارك فى اللقاءات.. وفى حفلات الاستقبال الراقصة.

فكانت الثورة الشعبية التى اشتعلت بشدة.. عندما ثارت النساء على أزواجهن.. يطالبن المعاملة بالمثل.. والمساواة مع خواجاية زوجة الوالى.. الجلوس والأكل مع حضرة الزوج.. بدلا من البحلقة إليه وهو يتناول الطعام وحده.. و.. ثار الأزواج.. وخرجوا إلى عبدالعزيز.. وضربوه ضربة رجل واحد.. وحطموا القصر على من فيه.. فمات الرجل الذى طبق المساواة قبل الأوان.. وفى وقت لم يكن مناسبا بالمرة.

بل أن أميرة أسبانية جميلة.. كانت هى السبب الحقيقى وراء غزو أسبانيا.. على يد طارق بن زياد.. وتؤكد حكايات التاريخ الأسبانية.. أن مدينة سبته المغربية.. كانت تتبع أسبانيا من الناحية السياسية.. وكانت أسبانيا تختار أحد وزرائها لحكم المدينة المغربية.. وحدث أن بعث الوزير بابنته الصغيرة.. لتتربى فى البلاط الملكى الأسبانى.. ولتأخذ حظها من الذوق والأدب.. لكن ملك أسبانيا واسمه «لذريق» أعجب بالبنت الأميرة..

واعتدى على عفافها.. فبعثت لأبيها سرا.. تخبره بما حدث.. فثار الرجل.. واستنجد بصديقه الأمير طارق بن زياد.. واتفق معه على غزو أسبانيا عقابا للملك.. وكشف لصديقه طارق.. عن نقاط الضعف والقوة فى الجيش الأسبانى.. و.. نجح طارق فى الغزو.. واجتياح الأراضى الأسبانية.. من جانبها الشرقى.. ثم لحق به موسى بن نصير من الجانب الغربى.. ليطوقا جيش الملك.. الذى فر هاربا..

ولا تنسى الحكايات الأسبانية.. أن تنصف طارق بن زياد.. فتؤكد أنه كان قائدا عظيما.. ومن غير المعقول أن يحرق مراكبه.. وما حدث بالفعل.. هو أنه أبعد المراكب عن الشاطىء.. لكنه لم يحرقها أبدا.. وإلا تعرض لمسئولية جسيمة عند قيام لجان الجرد.. بجرد عهدته من المراكب والسفن.

ومن الواضح أن بنات أسبانيا.. هن السبب وراء بناء قصر الحمراء.. أو الهمبرا كما ينطقونها فى أسبانيا.. ومن الواضح أن الوالى وقد سمع بما حدث لعبدالعزيز بن موسى بن نصير.. وعن شرف بنات أسبانيا.. الذى هو مثل عود الكبريت.. من الواضح أن الوالى.. قد قرر أن يمارس بعض الحرية الشخصية.. بعيدا عن عيون المتطفلين من النساء والرجال.. فكان التفكير فى قصر الحمراء.. الذى بنى على ربوة عالية تطل على نهر «الدارو» ويشرف على المدينة القرطبية.

قصر الحمراء.. تحفة تاريخية نادرة.. بشهادة اليونسكو الذى ساهم فى ترميم القصر الذى تعرض للحريق فى أواخر القرن الماضى.. والذى هو أقدم أثر اسلامى على مر التاريخ.. كما قام اليونسكو بترميم قلعة القصبة.. التى تحمى القصر من الأعداء وقت الشدة.. وقام أيضا بالمساهمة فى تجميل حديقة القصر.. التى يعتبرها أجمل حديقة فى العالم.. وقد سمى بالحمراء.. لأن الطينة التى استخدمت فى بناء الحوائط.. حمراء اللون. ويقولون أيضا.. انه سمى بالحمراء.. لأن أنواره المتلالئة.. لم تنطفىء يوما.. على مدى تاريخه الطويل.

ويحتاج الزائر مثلى.. إلى يومين أو ثلاثة.. ليطوف بأرجاء القصر.. وبقاعاته الكثيرة.. ويلاحظ نقوشه ونمنماته.. لكن الملاحظة السريعة.. أن الجملة الأثيرة التى تكتب على الحوائط وفى النقوش.. بالخط الكوفى الجميل هى: لا غالب إلا الله.. ولا توجد كلمتى: الله.. محمد التى نعرفها فى المساجد والنقوش الاسلامية.. ومن الواضح أن القصر قد تأثر بالروح الشيعية الفاطمية لأهالى المغرب. رغم الخلاف الحاد بين الشيعة وحكام الأندلس.. وهو الخلاف الذى تطور إلى حرب فى أكثر من مناسبة..

ولأننى لا أجيد فنون وصف الحوائط والأعمدة والأسقف والنقوش.. فإننى أكتفى بالقول.. إن القصر هو صورة ناطقة بالعز والبذخ والفخفخة والأبهة.. وهو ما بهر سفراء الدول الأجنبية الذين ذهبوا يقدمون فروض الطاعة والولاء.. للحكام والخلفاء.. الذين تربعوا على العرش الأندلسى.. لأكثر من سبعمائة عام.. وفرضوا نفوذهم وسلطانهم حتى الامبراطورية البيزنطية.

لكنى لا أدرى حقيقة.. ما العلاقة بين الفلوس وبين الترف إلى حد السفه.. وتستطيع أن تكون غنيا دون أن تستفز الآخرين.. والحكاية لا ترتبط بحكام الأندلس وحدهم.. لكنها ترتبط بالعصر.. بدليل الكنائس والكاتدرائيات التى بنيت عقب سقوط العرب.. والتى تنطق بالعز والغنى وبالشبع بعد طول جوع.

فى قصر الحمراء.. قاعة للاستقبال مساحتها ٤٤٤ مترا.. وبها ١٢٤ عمودا من الرخام وارتفاع سقفها عشرون مترا.. وهذه القاعة بالذات.. هامة جدا.. فقد مارس الحكام العرب أمور الحكم فيها.. وعقدوا الاتفاقيات والمعاهدات.. وخططوا وتمكنوا من غزو نصف أوروبا.. واستقبلوا فيها السفراء والملوك ومندوبى الدول الأجنبية.

ويشاء التاريخ.. أن تشهد نفس القاعة زوال الحكم العربى.. وفيها وقع آخر الخلفاء وثيقة التنازل عن العرش.. بسقوط غرناطة فى نهاية القرن

الخامس عشر.

فى نفس القاعة.. خلعت إيزابيل ملكة أسبانيا مجوهراتها وتاجها الملكي.. وقدمتهما إلى كريستوفر كولمبوس.. للمساهمة فى تمويل رحلته إلى المجهول.. لاكتشاف بحر الظلمات.. وغزو القارة الأمريكية بعد ذلك.

وبحر الظلمات بالمناسبة.. هو الاسم الذى كان يطلق على المحيط الأطلنطى.. وقبل ميلاد كرستوفر كولمبوس بمئات السنين.. قام القائد العربى عقبة بن نافع باقتحام بحر الظلمات بحصانه.. ومشهرا سيفه.. مؤكدا أنه مستعد لغزو البحر.. لولا أنه يعلم أنه لا توجد وراءه أراض يستطيع فتحها.. ونسى أن غزو البحر لا يتم بالحصان والفرس.. وإنما بالمراكب والسفن..

ولكن من المؤكد.. أن عقبة بن نافع معذور.. لأن العالم احتاج إلى ٩٠٠ سنة جديدة.. ليطور المراكب والسفن.. ويكتشف الجديد فى العلم والجغرافيا.. بما مكن كولمبوس بعد ذلك.. من اقتحام بحر الظلمات.

بسقوط العرب فى نهاية القرن الخامس عشر.. لم يتوقف دور قصر الحمراء.. وقد مارس الأوروبيون الحكم من داخل القصر الجميل.. إلا أنهم وقعوا فى خطأ تاريخى خطير.. عندما تصوروا أن حمامات القصر الكبيرة.. هى قاعات للطعام.. فمدوا فيها الموائد الضخمة.. وعزموا ضيوفهم للأكل داخل الحمام.. وهو خطأ تاريخى استمر عدة قرون.. إلى أن تم تصحيح الخطأ بعد ذلك..

على أن أجمل ما فى قصر الحمراء.. هى تلك المنطقة المخصصة للحريم والتى يطلق عليها «الحرمانة» وفيها عرفوا مبكرا شعار.. ممنوع الاقتراب.. ممنوع التصوير.. ولم يكن مسموحا لرجل بمجرد تخطى الخطوط الحمراء.. الرجل الوحيد.. هو حضرة الخليفة.. الذى كان مسموحا له بالجلوس على حدود المنطقة.. داخل غرفة علوية خاصة.. يستطيع منها أن يراقب ما يدورداخل «الحرمانة» خصوصا ما يدور داخل

حمام النساء.

وفى الحرمانة.. توجد «البركة» وهى حمام سباحة كبير بطول ٣٥ مترا.. وعرض ٢٣ مترا.. وفيها تستحم الجوارى والحريم.. خصوصا فى حر الصيف السخيف.. بينما يجلس حضرة الخليفة فى غرفته العلوية.. يراقب المنظر الجميل.. وفى يده تفاحة كبيرة.. يستخدمها فى الوقت المناسب..

عقب انتهاء الحريم من الحمام.. يغادرن «البيسين» فيلقى الخليفة بالتفاحة إلى من يختارها من الجوارى.. طبقا لموهبتها فى السباحة وأشياء أخرى لتصعد إليه فى غرفته.. لتتلقى التهنئة من سيادته.. وتنال شرف اللقاء السامى..

وكم تمنيت.. لو ركبت آلة الزمن الجهنمية.. لأعود كم مائة سنة إلى الوراء.. إلى العصر الخصيب.. بعيدا عن دوشة المواصلات.. وزحمة حمامات السباحة.. وساعتها سأجلس فى حجرة حضرة الخليفة.. وفى حجرى اتنين كيلو تفاح.. من الحجم الصغير.. وحتى يزيد العدد.. وألقى به واحدة واحدة.. لمن التمس فيهن مواهب خاصة بالسباحة والغطس.. والنوم فى الماء.

على أن المشكلة الحقيقية.. أن نظرى شيش بيش.. وأراهن أننى سأخطىء.. وأننى سألقى بالتفاحة لأحد الحراس الأشداء.. الذى سيصعد لحجرتى.. و.. تبقى مصيبة.

وليس قصر الحمراء فقط.. هو مصدر الاهتمام الأسبانى.. فهناك العديد والكثير والمتنوع.. من الحمامات الشعبية والقصور القديمة.. فى محافظات الأندلس.. التى تبلغ ثمانى محافظات.. وهناك فى مدينة قرطبة مثلا.. المسجد الكاتدرائية.. وهو إحدى عجائب الدنيا.. لو جاز التعبير.. فبعد سقوط قرطبة فى أيدى العرب.. قاموا بشراء نصف كاتدرائية قديمة.. لتحويلها إلى مسجد..

وبدخول الأسبان إلى الدين الاسلامى.. قام العرب بشراء النصف الآخر

من الكاتدرائية.. لتصبح مسجدا.. ولكن بتولى الخليفة عبدالرحمن الداخل.. الشهير بصقر قريش الخلافة.. وإعلان نفسه خليفة أمويا على البلاد.. قرر تحويل المسجد.. إلى مسجد كبير.. على طراز المسجد الأموى فى دمشق..

وخلال عهد عبدالرحمن الداخل.. وعهود أخرى.. تمت توسعة المسجد.. ليصبح هو المسجد الأكبر بين البلدان الاسلامية.. وأطلق عليه اسم.. المسجد الكبير.

ولكن بسقوط قرطبة.. واستيلاء المسيحيين عليها تم تحويل المسجد إلى كاتدرائية.. لكن المسلمين استولوا على قرطبة مرة أخرى.. فأعيد المسجد.. وهكذا.. بتكرار السقوط والتحرير.. أصبح المسجد والكاتدرائية معا.. داخل نفس المبنى.. الذى تقوم الحكومة الأسبانية الآن بتجديده.. على نفس الطراز القديم.. على أن ما أعجبنى حقا.. هو تلك الأعداد الضخمة من الصبيان والبنات.. الحريصين على زيارة الآثار الاسلامية.. على اعتبار أنها تمثل تاريخهم البعيد..

ولكن ما غاظنى من البنت الأسبانية.. هو ذلك الاصرار الغريب.. على التدخين وبشراهة.. وطوال الوقت.. وفى جميع بلدان أوروبا.. لم أر بنتا مثل البنت الأسبانية.. تدخن وهى تسير فى الطريق العام.. وهى ليست بنتا واحدة.. بل ظاهرة عامة.. أن تسير البنت وفى فمها «عقب» سيجارة.. مع أن هناك اتجاها عاما فى أوروبا كلها لمحاربة التدخين.

بل إن أسبانيا ذاتها تشهد الآن موجة من الرفض للتدخين.. حتى فى الأماكن العامة.. وقد جلست فى احدى الحدائق اتأمل الأحوال وأجدد نشاطى.. وأشعلت سيجارة.. بحكم العادة.. فإذا برجل يندفع نحوى من أقصى الحديقة.. وأدركت أنه أحد المحافظين على البيئة.. عندما خاطبنى بلهجة غاضبة.. وهو يشير إلى سيجارتى..

وتعجبت للرجل الغلس.. الذى اختارنى بالذات.. ليحملنى مسئولية ثقب

الأوزون.. فتشاجرت معه بالعربي الفصيح.. وتشاجر معي باللغة الأسبانية . واحتاج الأمر إلى أولاد الحلال.. من خبراء اللغات الأجنبية لوقف الحرب المشتعلة بيننا.. وفي النهاية أفهمني أولاد الحلال.. أن الرجل ليس من رجال البيئة.. وإنما هو «خرمان» وكان يريد أن يستلف مني سيجارة..!!

دخول ٣

الفلامنكو بالشاريب



الملكة صوفيا.. هى أشهر رجل فى أسبانيا..

ومع أنها ملكة أسبانيا الجميلة.. إلا أنهم يؤكدون أنها بألف رجل.. وأن كلامها لا يمكن أن ينزل الأرض.. فهى تلتزم بما تقوله وتفعله.. وعندما فكر ابنها الأمير فيليب فى الزواج من واحدة من بنات الشعب.. لم تمانع صوفيا.. ووقفت فى صف الابن.. ضد رغبة الوالد.. الذى يصر على زواج ولى العهد من إحدى أميرات أوروبا.. خصوصا انهن على قفا من يشيل..

ولهذا.. فإن زوجها الملك خوان كارلوس.. هو المادة المفضلة لرسامى الكاريكاتير.. وكُتاب الفكاهة والمسخرة.. عكس مدام صوفيا.. أو «دينا» صوفيا.. كما ينادونها.. ويؤكدون أنها حبيبة الملايين..

صوفيا بالمناسبة.. تكاد تكون الوحيدة التى ترطن بسبع لغات.. هى الأسبانية لغة بلادها.. واليونانية على اعتبار أن جدها ملك اليونان.. والفرنسية لغة الأرستقراطية والمجتمعات الراقية.. والانجليزية لغة السياسة والتجارة والمال.. والايطالية لأنها الأقرب للأسبانية.. والعربية لأنها عاشت فى مصر وتخرجت فى مدارسها.. ثم أنها تعرف بعض الألمانى.

تنحاز «صوفيا» إلى الناس الغلابة.. خصوصا الغجر.. لأن غرناطة هى مركز تجمع الغجر فى أسبانيا.. وهناك أكبر جالية غجرية فى جميع أوروبا.. ومن بين ٤٠ مليون مواطن أسبانى.. هناك مليون غجرى.. يتمركزون فى غرناطة.. حيث جبال «سييرا نيفادا» على بعد ٦٠ كيلومترا.. وحيث البحر المتوسط أو «الميرا» على بعد ٦٠ كيلومترا أخرى.. أى أن الغجر يملكون البحر والجبال.. ويملكون الليل أيضا.

الرجل الغجرى.. مثل أسد الغابة.. يمارس فضيلة الكسل اللذيذ.. لا يحب العمل.. ويفضل النوم حتى العصر.. بينما تقوم «المدام» بمهام العمل طوال اليوم.. فى التسول وضرب الودع والنشل وأعمال أخرى.

وفى الليل.. تبدأ وردية العمل للرجل الغجرى.. الذى يسيطر تماما على مملكة الليل.. ودنيا الليل.. ونصف مطاعم ومقاهى وبارات المدينة الليلية. مملوكة للغجر.. يمارسون فيها نشاطهم العلنى.. أما النشاط السرى.. خصوصا تجارة المخدرات.. فحدث ولا حرج..

ومع أن أسبانيا لا تعانى من مشكلة المخدرات.. كما باقى دول أوروبا.. إلا أن البطالة والفراغ.. و٣ ملايين عاطل عن العمل.. يهددون المجتمع الأسبانى.. بانتشار المخدرات وجعله قطعة من أوروبا.

وقد فكرت «صوفيا» فى حل جذرى للمشكلة.. فوجدت أن الحل الأمثل هو تحسين أحوال الغجر.. فعقدت اجتماعات مع ممثليهم وملوكهم.. لأن للغجر ملوكا وأمراء.. وفيهم السادة والعبيد.. والأغنياء والفقراء.. فى مجتمع منغلق منعزل.. يصعب اختراقه وفهم قوانينه.

ومشكلة الغجرى الحقيقية.. أنه بطبعه لا يخضع للنظام.. ولا يلتزم بالمواعيد.. ولا يلتحق بالمدارس.. ويكره الجدران المغلقة.. يفضل السكن فى كهوف بالجبال والتلال المحيطة بالمدينة.. يمارس فيها حياته بالفطرة.. فيتزوج وينجب أطفالا.. وفى أوقات فراغه.. يرقص الفلامنكو.. رقصة الغجر المفضلة..

وقد وافق الغجر على دعوة الملكة «صوفيا» بالتنازل عن تجاراتهم الممنوعة. ووافقوا على التخلى عن مملكة الليل السرية.. والاكتفاء بالمملكة العلنية.. حيث المطاعم والبارات.. ورقصة الفلامنكو.. التى حولوها إلى رقصة سياحية.. ووافقوا على الاندماج فى المجتمع والتخلى عن الكهوف.. والالتحاق بالمدارس.. واشترطوا أن يعيشوا معا فى مجتمعاتهم الجديدة.. بحيث يتم الاندماج بالمجتمع تدريجيا..

و بالفعل.. قامت الحكومة الأسبانية ببناء أحياء بأكملها.. يسكنها الغجر.. وزودتها بوسائل المعيشة الحديثة.. وأعلنت «صوفيا» أن مشكلة الغجر.. فى طريقها إلى الزوال..

ولكن.. لأن الطبع يغلب التطبع.. فلم تمر سوى شهور قليلة.. حتى تخلى الغجر عن مساكنهم الجديدة.. فباعوا الأبواب والشبابيك.. ونزعوا الحنفيات والأحواض.. وأقاموا الخيام أمام بيوتهم الحديثة.. وعاشوا فى «تبات ونبات» فى الخيام.. فى مناطق يصعب اقتحامها والدخول إليها.

وفي أسبانيا.. من المعروف.. انك لو أردت عقاب رجل البوليس.. أو ساعى البريد.. فعليك بنقله إلى مدينة الغجر.. حيث الداخل مفقود.. والخارج مولود.

و.. هكذا.. عادت ربما لعادتها القديمة.. وعاد الغجر إلى سيرتهم الأولى.. فيما يعد نكسة حقيقية لمشروع الملكة صوفيا.. لتحسين أحوال الغجر.. والقضاء على تجارة المخدرات..

على أن أجمل مافي الغجر.. هو رقصتهم الفولكلورية الشهيرة.. برقصة الفلامنكو.. وهي رقصة جميلة فعلا . تعتمد على الايقاع السريع للجيتار.. مع تصفيق الأيدى وبيب الأقدام.. والغناء الحزين عالى الصوت.. وهي رقصة فيها شموخ وكبرياء.. تحكى غالبا عن قصة حب فاشلة.. أو عن حكايات الرحيل والتهجير.. ومعاناة الغجرى مع المدنية.. وعدم الفهم المشترك مع أهلها.

ولمشاهدة الفلامنكو. عليك بدخول أحد المقاهى أو البارات الليلية.. في حى «البايسين» حيث الدخول والفرجة بالمشاريب.. فتطلب مشروبا.. وتجلس تتفرج.. وتشارك بالرقص أحيانا.

وقد سحرنى الوجد.. وأنا أتفرج على الفلامنكو.. ولطشتنى النشوة.. فقررت الخروج للطريق العام.. لأدعو الرايح والجاى.. لمشاهدة الفن الأسبانى الأصيل.. وعلى حسابى الخاص.. لولا أننى تذكرت بسرعة أن ثمن المشروب حوالى ثلاثين جنيها مصريا.. فتراجعت عن الفكرة المجنونة واكتفيت بالفرجة والرقص والغناء.

على أن الغجر الذين يحكمون مملكة الليل في منطقة «البايسين» ليسوا وحدهم.. فهناك مملكة أخرى لليل في الحى التجارى.. بالقرب من الجامعة..

حيث العشرات من المقاهى والبارات والمطاعم الشعبية الرخيصة.

وإذا كانت غرناطة تعانى من الحر الخانق نهارا.. فمن الطبيعى أن تعرف السهر بعد العاشرة مساء.. حيث تستقبل زبائن الليل. شبابا وشابات.. من الجامعة غالبا.. بالجينز والمينى جوب وفساتين السهرة.. فالموضة الآن.. هى اللاموضة. السمك.. اللبن.. التمر هندى.. ولا أحد يقدر على تنفيذ ذلك.. سوى الشباب.

وفى المقاهى تبدأ تجمعات الشباب.. ويبدأ الضحك والدوشة والرقص والسجائر.. والانفعالات.. لا فارق بين ولد وبنت.. ويا سلام على منظر القهوة فى الواحدة صباحا.. وهى تلطع بالكلام والمناقشات. وقد ازدحمت تماما.. فوقف الشباب على النواصى.. وسيارة تركن على الرصيف.. وصوت الموسيقى ينبعث عاليا من الداخل. والبعض يرقص.. والرقصة جريئة ضاحكة. تشبه الفلامنكو.. لكنها ليست حزينة.. جاءت من اقليم سيفيليا.. أو «أشبيليه» المدينة العربية القديمة.

ولعلمكم.. فإن شباب أسبانيا.. برغم الرقص والسهر والصعلكة والصياعة.. هو افضل شباب أوروبا.. بدليل الأرقام والاحصائيات.. فالمخدرات التى تقلق الملكة صوفيا.. هى الأقل استهلاكا فى أسبانيا.. والايدز نسبته هناك أقل من أية دولة أوروبية.

واذا كان الشباب يعانى من البطالة بعد التخرج.. فأوروبا الموحدة تفتح أبوابها.. وشباب وشابات أسبانيا يغزون بلدان أوروبا.. مسلحين بالعلم والشهادة الجامعية.

ويا عينى على الشباب هناك.. حيث الحرية والانطلاق.. وياحسرة على الشباب فى مجتمعات أخرى.. وقد حاصرناهم بمجموعة من الأفكار والتقاليد البالية.. والقيم الفاسدة.. التى قدسناها.. ورفعناها لمرتبة النصوص الدينية.. وسهر الولد عيب.. وخروج البنت وحدها مصيبة.. والصرمحة والفرفشة خروج على التقاليد.. والضحك من غير سبب قلة أدب.. واذا اجتمع ولد وبنت كان

الشيطان ثالثهما.. هكذا.. خبط لزق.

ياسلام على منظر الأولاد والبنات فى أسبانيا.. وهم يتجادلون.. ويتكلمون ويتنافرون.. دون عقد أو خوف أو حساب.. وهم شباب لا يعتمد على بابا فى المصروف والمعيشة.. لأنهم يعملون فى سن الثامنة عشرة فى أعمال صغيرة.. تغطى مصروفات الجامعة.. وسهرات «الويك إند».. ولهذا فإن ثقتهم فى الغرب بالشباب بلا حدود.. وهى ثقة بالفعل.. لا بالكلام.. بدليل انهم لختاروا ولدا كبيرا عمره ٤٥ سنة واسمه كلينتون.. لرئاسة أمريكا.. أكبر دولة فى العالم.. ومن قبله اختاروا جون ميجور لبريطانيا وعمره ٤٦ سنة واختاروا «لوران فابيوس» ليحكم فرنسا وعمره ٣٩ سنة..

أقصد أن الأمم تتقدم على يد الشباب.. والغرب بالذات تقدم كثيرا عندما استفاد بحماسة الشباب وطاقتهم على العمل.. دون أن يقول لواحد منهم.. عيب ياولد.. أكبر منك بيوم.. يعرف عنك بسنة!!

الجميل فى الحكاية.. أن الشباب لا يسهر وحده.. ولكن العواجيز أيضا.. والآباء والأمهات يسهرون كذلك.. ولكن أمام البيوت.. وفى غرناطة.. حيث يفضلون البيت من طابق واحد.. أو طابقين.. يهرب الناس من حر الصيف ليلا.. إلى الشوارع أمام بيوتهم.. فتجد العائلة وقد رصت الكراسى والموائد أمام باب البيت.. تتفرج على التليفزيون.. أو تتناقش وتتكلم مع الجيران فى البيت المجاور.. انتظارا لعودة الابن أو البنت السهرانة فى وسط المدينة.

البيت الأسبانى بالمناسبة.. له طابع خاص.. ويشبه بيوت الفلاحين عندنا.. حيث يتكون البيت من عدة حجرات تطل كلها على حوش داخلى.. اسمه «الباثيو».. وتعيش العائلة فى بعض الحجرات.. وتبقى البعض الآخر خاليا.. استعدادا لزواج الأولاد.. فإذا ما تزوج الولد أو البنت لحتل لحدى حجرات المنزل.. ولهذا لا يشعر الوالدان أبدا بالوحدة.. طالما انهما على قيد الحياة.. ولهذا لا يعرفون فى غرناطة بيوت العواجيز والمسنين.. ولا يعرفون أبدا.. الطبيب النفسانى.

تصوروا!!

٤

الغشيم والجميلات
وماما ستيفانى



شعرت أننى فرحان بشبابى.. وأنا أتمخطر بالمايوه.. حول حمام السباحة فى الفيلا الأنيقة.. مثل أخونا ريدج.. بطل «الجرىء والجميلات».. وبصحبتى المرحومة كارولين وهى عريانة.. والولد ثورن اللئيم يختلس النظر والبحلقة من وراء شيش البلكونة.. والغيرة تنهش قلبه.. وماما ستيفانى تطنش عن الحكاية كلها.. ومخها مشغول بمقلب جديد من مقالبها لبروك المثيرة.. التى أحبها.. ولا أنام الليل من أجل خاطر عيونها.

وحمامات السباحة فى البيوت على قفا من يشيل.. رغم أزمة المياه فى أسبانيا.. وهى الأزمة الحادة.. بسبب جفاف الأنهار الصغيرة.. وهو جفاف يشبه الجفاف الافريقى.. ولولا الملامة.. ولولا أنها أسبانيا الأوروبية.. لخرجت علينا وكالات الأنباء العالمية.. بحكايات عن التصحر والتشرد والمجاعة.

وتلطم الحكومة هناك خدها كل يوم.. بسبب ذلك الجفاف الذى يتسبب فى خسائر بالمليارات.. فالجفاف صيفا.. يؤدى لخسارة محصول الزيتون.. المحصول الأول فى أسبانيا.. ويسبب حرائق الغابات.. التى تكلفهم الشىء الفلانى.. فضلا عن تلوث البيئة.. وجفاف الشتاء.. يعنى تدهور الموسم السياحى للتزحلق على الجليد فى جبال «سييرا نيفادا».. وخصوصا أن بطولة العالم للتزحلق على الجليد.. تقام هناك فى يناير القادم.

ولا تستطيع الحكومة مواجهة تلك الظاهرة الطبيعية.. التى

لاتحدث في أسبانيا فقط.. وإنما في جنوب فرنسا.. وجنوب ايطاليا.. وتتكرر على مدى السنوات الأخيرة.. والتي سببها اختلال المناخ.. وتغير الطقس.. بسبب ثقب الأوزون الملعون.. وإذا كانت حكومتا فرنسا وايطاليا.. تواجه الظاهرة بالمطر الصناعي.. فإن اليد القصيرة.. وضعف الميزانيات تحول دون مواجهة الظاهرة في جنوب اسبانيا..

وإذا كانت الحكومة تقف عاجزة أمام الجفاف في الجبال والغابات.. فإنها تستطيع التصرف في المدينة.. وقد اقامت الحنفيات العمومية في الميادين.. لمن لا يستطيع شراء المياه المعدنية.. لزوم الشرب وطهو الطعام.. وأهم كلمة يتعلمها السائح مثلي في أسبانيا.. هي كلمة «أكوا» يعني ماء.

والحكومة هناك.. ليست مكسوفة.. أو مصابة بالنفخة الكدابة.. وهي تعلم بوضوح.. وبالفم المليان.. للشعب وللسياح.. إن مياه الحنفيات في البيوت ملوثة جدا.. لا يمكن ولا يجوز الشرب منها.. وأن من يرغب في شرب الماء.. فعليه بالوقوف طوابير.. أمام الحنفيات العمومية.. أو شراء «أكوا» من السوبر ماركت..

وبالرغم من أزمة المياه.. إلا أن حمامات السباحة الخاصة.. في البيوت والفيلات.. منتشرة جدا.. وهي ليست دليلا على العز أو الغنى.. أو التجارة في البودرة.. أو غزو السوق السوداء.. ولكنها دليل حقيقي على الحر الرهيب..

والحكومة هنا ليست مسئولة عن تطهير مياه حمامات السباحة.. وهي المياه التي تاتي اصلا من المجاري العمومية.. وهي تكتفي بضخ المياه في الحنفيات.. وعلى كل صاحب فيلا.. أن يقوم بنفسه وعلى حسابه الخاص.. بعمليات التطهير والتعقيم.. والغاوي ينقط بطاقيته.. كما تقول الفيلسوفة صباح..

وقد أتيحت لى فرصة العوم والبلبطة فى حمامات السباحة الفخمة.. التى هى أصلا من مياه المجارى المعالجة.. عندما تعرفت بطريق الصدفة.. على خواجة أسبانى.. يتكلم العربية بطلاقة.. وبالعامية المصرية.. وقد تصورت وتعاملت معه فى البداية.. على أنه مصرى مثلى ومثلك.. لولا أنه أكد لى أنه أسبانى أبا عن جد.. وأنه عاش فى الاسكندرية مع والده وأمه.. حتى منتصف الستينات.. ثم مات أبوه.. وتزوجت أمه.. فهجر الاسكندرية وهو ابن السابعة عشرة.. وجاء إلى أسبانيا.. يجرب حظه..

وفى الحقيقة.. فإن الخواجة الأسبانى الاسكندرانى.. واسمه «البرتو» هو الذى سعى للتعرف على محسوبكم.. بعد أن ذاع صيتى.. وأصبحت لى شعبية جارفة.. وصرت أشهر من نار على علم.. فى حوارى القيصرية.. وقهاوى البايسين.. ومطاعم القصبة.. باعتبارى طفلا معجزة.. وسائحا ذا كرامات.. لا يتكلم من لغات الدنيا.. سوى لغة الاشارة.. ومع هذا صرت من أهل البيت.. وأصبح لى أصدقاء وصديقات ومعارف وشلة كبيرة.. أعيش معهم.. وأضحك وافرفش وامشى فى الأسواق مرحا مبسوطا فرحانا.. وقد صار البساط أحمدى.. بفضل الناس والجماهير العريضة التى التفت حولى وأحبتنى.. تماما كما تحب جماهير سيدنا الحسين.. الخواجة جون.. لمجرد أنه ياكل فول وفلافل.. ويدخن المعسل.. ويقول سلامو عليكو..

تعرفت على الخواجة الأسبانى ظهرا.. وتصعلكت معه عصرا.. فطاف بى حوارى وازقة غرناطة التى لا يعرفها احد.. ورأيت واحدة تردح لجاراتها بكل لغات العالم.. ومنها اللغة الاسكندرانى.. ذات الحركات والاشارات والشهقات المعروفة..

وفى المساء.. عزمنى الخواجة «البرتو» على السباحة والعشاء فى

منزله الفخم.. وعرفني بابنته الصغيرة.. التي تعيش معه بعد أن طلق أمها.. وعرفني أيضا بصديقات البنت الصغيرة.. التي تشبه المرحومة كارولين.. والتي لا يزيد عمرها على عشرين عاما.. وتناديني بكلمة «أونكل».

البرتو الأسباني.. يشتغل في «البيزنس» في شركة مشهورة.. لها فروع في العديد من العواصم والمدن الكبرى.. في أوروبا وأمريكا والعالم الثالث.. ومجالها هو التجارة في كل شيء.. بدون كسوف أو خجل.

وقد تخصصت الشركة لفترة ما.. في شغل السمسرة.. في الصفقات التجارية المتبادلة بين الدول.. ومثلا تعقد كينيا اتفاقية تجارية مع الاتحاد السوفيتي.. تعبيرا عن الود والصداقة بين الشعبين.. قيمتها ٢٠ مليون دولار.. وبموجبها تورد كينيا للاتحاد السوفيتي شايا وتوابل.. وتستورد معدات صناعية.. ولأن كينيا لا ترغب في المعدات السوفيتية.. ولأن الاتحاد السوفيتي لديه فائض في الشاي.. فتقوم شركة الخواجة «البرتو» بالعمل.. فتستورد الشاي الكيني بخصم محترم.. وتدفع لكينيا فلوسها «كاش» بعد تحصيل السمسرة التي قد تصل إلى ثلث أو نصف المبلغ الأصلي.. وفي نفس الوقت تستورد المعدات الروسي بخصم آخر.. وتدفع للاتحاد السوفيتي كاش بعد خصم السمسرة. ثم تقوم بتوريد الشاي والمعدات لدولة ثالثة أو رابعة.

زبائن شركة «البرتو» من حكام دول العالم الثالث غالبا.. التي تطمح في الحصول على الفلوس نقدا.. لزوم استيراد السيارات وأدوات الرفاهية.. وقد أكد لي أن من زبائنه دولا عربية مجاورة لمصر.. بل إن مصر ذاتها.. كانت من زبائن الشركة.. في وقت من الأوقات.

«البرتو» الأسباني مهموم جدا.. بمشكلتين.. الأولى تدهور التكنولوجيا الأسباني التي لا تجد حلا سهلا لمسألة تعقيم وتنقية المياه في حمام السباحة الذي يملكه.. والمشكلة الثانية هي ابنته «كارلا» التي هي مثل لهطة القشطة في المايوه البيكيني الساخن.. والتي ليس لها صديق.. أو «بوى فريند».. لأن البنت متعلقة بوالدها جدا.. وهو يرغب في الانطلاق والصرمحة. بعد أن تستقر ابنته.. وترتبط بابن الحلال.. «البوى فريند».. مثل صديقاتها..

ومن الواضح.. أن «كارلا» موضة قديمة.. مع أن المسائل نسبية.. وبشكل عام.. فإن البنت الأسبانية.. مثل الأوروبية.. محافظة جدا.. من البيت «للبوى فريند» ومن «البوى فريند» للبيت.. تسهر البنت الأسبانية.. ترقص.. تشرب.. تسافر.. تمشي في الطريق عريانة.. ولكني أراهن أنها ستضع أصبعها في عين سيادتك.. لو أطلت النظر إليها.. وتصورت أنها لا مؤاخذة.. فالعرى عندهم بسبب الحرارة.. والموضة والانطلاق والعادات.. والعرى شيء.. والانحلال شيء آخر.. ولا تسلم البنت نفسها سوى لحبيب القلب «البوى فريند».. وهي تسهر وتمشي على حل شعرها.. بصحبة «البوى فريند».. إلا أنها تنام في البيت في آخر الليل.. وتقول لأبوها: صباح الخير يابابا.. وهو يشرب قهوة الصباح..

لا يهم ما الذي تفعله ليلا.. والمهم أنها تنام في البيت بعد ذلك.. وحكاية أن لها «بوى فريند» فهذا شيء طبيعي.. ومن حقها.. وهو ما يعادل - ومع الفارق - الخطيب عندنا.. وكما تتعدد الخطبة أحيانا.. قد يتعدد «البوى فريند» لكن من المؤكد أن البنت لا تجمع بين اثنين في وقت واحد.. ولا تسلم نفسها لأى عابر سبيل.. وغالبا ما تتزوج البنت من أول أو من ثاني «بوى فريند» تعرفه في حياتها..

القضية أن مفهوم الشرف والعفة عندهم يختلف.. وشرف البنت

ليس مثل عود الكبريت.. لكنه مثل الولاعة «الكارتييه».. بشرط أن يمسكها شخص واحد.. والبنت لا تنام مع حبيب القلب.. بدافع الاباحة.. ولكنه الحب.. الذى يشجعه الوالدان.. ويحرضان عليه.. والبنت التى ليس لها «بوى فريند» مشكلة معقدة.. وعلى الوالدين حلها.. بالاشتراك فى النوادى.. والذهاب لحفلات الرقص.. والتعرف على الأصدقاء.. عسى أن يرزقها الله «ببوى فريند» طيب وابن حلال..

ولعل هذا هو السبب.. الذى يدفع المصريين والشرقيين بشكل عام.. لمغادرة اوروبا.. فور وصول البنت لسن الفهم والبلوغ.. خوفا من حكاية «البوى فريند».. وشرف البنت الذى هو مثل الولاعة.. بصرف النظر عن نوع الولاعة.

واقر واعترف.. اننى فرحت جدا.. بالشابة «كارلا» التى تستلقى امامى على حمام السباحة.. وتتمسك بمبادىء الأدب والخلاق الحميدة - رغم المايوه الساخن - فى ظل عادات وتقاليد تختلف عن عاداتنا وتقاليدنا.. فقلت أقنع صديقنا الخواجة «البرتو».. وعلى طريقة الأفلام العربى.. بأن ابنته على صواب.. وأنه لا يجب أن يدفعها لطريق ترفضه.. وأنه من الأفضل له ولها.. أن تتربى فى عزه.. حتى يأتى عدلها.. ويرزقها الله بجدع طيب وابن حلال.. وحتى يرى «البرتو» أولادها وأولاد أولادها.. وأن أعز الولد.. هو ولد الولد..

فغطس الخواجة «البرتو» فى الماء.. ثم خرج ليقول لى إن ما اقوله هو موضة قديمة.. أكل الدهر عليها وشرب ونام.. وأن البنت فى أسبانيا تختلف.. فهى مسئولة عن نفسها.. وحضرة الوالد مسئول فقط عن تعليمها.. وليس مسئولا ابدا عن اختيار العريس.. ومسائل الشبكة والمهر والجهاز.. ولا يوجد عندهم رجل محترم ومهموم جدا.. بمسالة جهاز البنت.. لأن الأوروبى وقد علم ابنته ورباها حتى سن العشرين.. من حقه أن يستمتع بحياته.. التى لنيست وقفا على

الأولاد.. ومن حقه أن يلعب جولف.. وأن يسافر حول العالم.. وأن يتفسح.. وأن يفرفش.. وأن ينبسط.. ولا يوجد عندهم الأب المشغول بجهاز البنت وشراء شقة للولد.. والذى هو مهموم بطريقة العرض المستمر.. لأن العين بصيرة.. واليد ليست كذلك.. ولهذا يمد يده ليسرق.. أو يختلس.. أو يعمل «أوفر تايم».. أو يموت بالسكتة القلبية.

انسحب الخواجة «البرتو» إلى غرفة معالجة المياه.. ليشرف بنفسه على مسألة التعقيم والتطهير.. وقد تركنى مع البنت وصديقاتها.. لأحاول اقناعها بمسألة «البوى فريند».

لكنى أعترف اننى كرهت الحدوتة.. ولم أحب الرجل.. ولم أحترم المنطق الذى يفكر به.. ولم أفهم غرضه بالضبط.. وإذ كان حضرته يعمل بالبيزنس ويتاجر فى كل شىء.. فمن يعلم.. فربما كانت حكاية البنت.. نوعا من أنواع البيزنس.. والاستثمار.. وتجارة الألف صنف..

ولم أكرر زيارتى أبدا.. لبيت البرتو.. الذى يتكلم عربى.. رغم إلحاحه بضرورة تكرار الزيارة.. ورغم أن البنت تشبه كارولين.. فانا لم أحب الرجل.. ولا أفضل السباحة فى مياه المجارى.. ثم اننى لا أحب كارولين.. وأفضل عليها بروك المظلومة.

وقررت العودة إلى الجماهير.. التى أحبها وتحبنى.. والتى أفكر فى ترشيح نفسى عنها فى أول انتخابات قادمة.. وخصوصا أنهم معجبون جدا بكونى عربيا.. فالأصل واحد.. والتاريخ مشترك.. ومن الواضح أنه احساس دفين بالحنين إلى حضارة استمرت ثمانية قرون.. أو ربما كان نوعا من الاعجاب والحسد.. على اعتبار اننى أحد الأحفاد الذى نجوا بجلدهم من مذابح الأوروبيين.. عقب سقوط الأندلس..

ومن حكمة الله.. أن الأندلس.. التي شهدت حضارة عظيمة.. والتي دخل فيها الاسلام بالراحة.. وعلى مهل.. فشهدت تعايشا حقيقيا.. بين جميع الأديان.. استمر ثمانية قرون كاملة.. قد صارت اليوم كاثوليكية تماما.. ولا يكاد يوجد بها مسلم واحد.. بعد أن خرج منها الاسلام بسرعة.. وبقوة السيف.

وعقب سقوط غرناطة.. آخر معاقل الأندلس.. في أواخر القرن الخامس عشر.. هرب يهودها - كما هي العادة - بفلوسهم وأرواحهم إلى طليطلة.. بالقرب من مدريد.. حتى يتسنى لهم منافقة الحكم الجديد.. في حين ظل المسلم والمسيحي جنبا إلى جنب.. يدافعان عن المدينة.. وعن حرية العقيدة.. وهذا درس آخر من دروس التاريخ وكان من الممكن للمسيحي أن يرحب بنظام الحكم الجديد على اعتبار أنه نظام مسيحي.. إلا أن المسيحي أدرك بالفطرة.. أن النظام الجديد هو نظام بربري.. بدليل محاكم التفتيش التي لعبت دورها.. فمارست العنف ضد الجميع.. إلى الحد الذي جعل أحد الفلاسفة المسيحيين يصرخ بالقول.. إنه من المستحيل أن يكون الشخص مسيحيا حقيقيا ويموت في فراشه.

وخلال عشر سنوات من سقوط غرناطة.. حكمت محاكم التفتيش على عشرة آلاف شخص بالحرق.. وعلى سبعة آلاف بالشنق مع التجريس والبهدلة.. وعلى مائة ألف بعقوبات السجن والجلد.. ووقعت مآس كثيرة.. تحتاج إلى كتيبة من كتاب الدراما.. ومؤلفي المسلسلات.. بدلا من التمثيليات السخيفة عن «الجريء والجميلات».. وعن حمامات السباحة.. تظهر فيها كارولين عريانة بلبوصة.. مع ريدج الوسيم.. الذي يحب بروك ولا يفضل السباحة.. في حمامات المجاري.

٥

اسبانيا لا تعرف الحلاوة الطحينية



ولأننى «زوج» طيب وابن حلال.. أقدس الحياة الزوجية.. وأسمع كلام المدام.. فقد قررت الابتعاد عن اللبط. وعن شغل السياسة والاقتصاد.. والتفرغ تماما للسياحة والسفر.. كما تفعل الست المذيعة التخينة فى التليفزيون.. التى تعسكر ما بين الغردقة وشرم الشيخ صيفا، والأقصر وأسوان شتاء.. لتقدم برامج سياحية مخصوصة.. وبالمرة وفوق البيعة.. تتفسح مع حضرة الزوج والأولاد والخدامة..!!

السيدة حرمنا.. تتمنى السياحة والسفر والفسحة الشرعى.. على حساب صاحب المحل.. وقد بهرتها الحكايات عن رخص الأسعار فى الأندلس.. والتى هى الأرخص.. فى اللحم والخضار والهدوم والسجائر.. من أسعار سوق الموسكى فى مصر.. ذلك لأن المنافسة الشريفة بين الشركات.. فى ظل الحزم الحكومى.. والعين الحمراء.. تؤدى تلقائيا لهبوط الأسعار.. عكس الحال فى المجتمعات اياها.. حيث تطنش الحكومة.. عن تكتل التجار والمستوردين.. من أجل ذبح المستهلك محدود الدخل والغلبان..

ولأن أسبانيا تحطم الأسعار تحطيما.. فقد صارت هى القبلة والمرفأ.. ومربط الفرس ومحطة الانطلاق.. للاخوة من أصحاب المعاشات فى أوروبا.. والذين انخفضت دخولهم.. بفعل المعاش والتقاعد.. فهجروا بلادهم «الغالية» واستفادوا من مكافأة نهاية الخدمة.. بشراء فيلا فى

غرناطة بالذات.. خصوصا أن أسبانيا تقع على بعد فركة كعب من بلادهم.. ولا تستغرق الرحلة بالطائرة.. إلى لندن أو ميونخ.. سوى ساعة ونصف ساعة.. أو عشر ساعات بالسيارة.. أو خمسين يوما بالقطار.. لأن القطار الأسبانى مشهور جدا.. بسرعته الفائقة.. التى تنافس سرعة قطار المناشى عندنا..

والأرقام تؤكد.. أن ما يقرب من نصف مليون شخص أوروبى.. يقيم ويستقر فى أسبانيا نهائيا.. بعد خروج حضرة الوالد أو الزوج إلى المعاش.. وأن الألمان والانجليز والسويسريين بالذات.. يشكلون نسبة محترمة من أصحاب المعاشات.. الذين تصرفوا بطريقة عملية.. فباعوا ما وراءهم وما أمامهم.. واصطحبوا العائلة والأولاد.. واختاروا أسبانيا وطنا ثانيا.. بعد ارتفاع أسعار السلع والمنتجات فى بلادهم الأصلية.. ارتفاعا كبيرا.. يكاد يقترب من ارتفاع الأسعار فى مصر.

والسويسرى مثلا.. الذى يعيش فى أغنى بلد فى العالم.. لا يمانع أبدا.. فى الانتقال والهجرة من مسقط رأسه.. إلى أسبانيا الرخيصة.. فيقوم بتحويل معاشه إلى البنك.. وبالجمع والقسمة والضرب والطرح.. يكتشف أن معاشه المحدود فى بلاده.. والذى يرشحه للانضمام لقبيلة عشانا عليك يارب.. يكفى ويزيد.. لكى يعيش فى أسبانيا عيشة الملوك واللوردات.. مستفيدا من فروق الأسعار.

من جانبها.. لم تقصر الحكومة الأسبانية.. وبفضل القوانين الأوروبية الموحدة.. وبفضل الامتيازات الاضافية.. تعطى الحكومة لأصحاب المعاشات الأوروبيين.. حق الاقامة والاستقرار.. وإلحاق الأولاد بالمدارس والجامعات.. بشرط الا يسكن الأجنبى فى وسط المدينة.. ولكى يستفيد من الامتيازات المتاحة.. عليه بالسكن فى الضواحى

البعيدة.. التى تقوم الحكومة بمد جميع الخدمات إليها.. وبهذا تضرب عصفورين بحجر واحد.. فلا يزاحم الضيف الأوروبى أهل البيت فى السكن.. ثم إنه يعمر أطراف المدينة.. والحكومة هناك لا تعانى من عقدة الخواجة.. وهى ليست مسئولة عن توفير المواصلات العامة.. إلى مناطق سكن الضيوف.. لأن الأوروبى مبسوط.. ويملك سيارة يستطيع التنقل بها.. وبعد فترة لا تزيد على أعوام قليلة.. تصبح المنطقة النائية.. منطقة معمورة ومأهولة بالسكان والمحلات.. بعد أن جذبت الأسبانى ابن البلد.. فتصدر الحكومة فرمانا جديدا.. بأن يبتعد الأجنبى الوافد بعد ذلك.. إلى مناطق أبعد.. يساهم فى تعميرها.. ولهذا تتوسع غرناطة.. وتمتد مساحتها سنة بعد أخرى.. تماما كما حدث فى القاهرة زمان.. فى منطقة المعادى.. وهى المنطقة التى لم تتكرر.. لغياب التخطيط الحكومى.

. ولو اننى مسئول عن التخطيط العمرانى بالقاهرة.. أو أشتغل مسئولا كبيرا فى السياحة.. لاستفدت من التجربة الأسبانية.. ونصحت الأجانب والاخوة العرب.. الراغبين فى شراء شقق للاستقرار والاقامة فى مصر.. بشرائها فى المدن الجديدة.. مثل مايو أو أكتوبر أو سبتمبر.. أو حتى ذى القعدة.. وأراهن أن هذه المناطق بعد فترة.. سوف تنافس المعادى ومصر الجديدة.. وسوف تزدحم بالمحلات والسوبر ماركت.. والسينمات والمسارح والملاهى.. وسوف تنخفض طبعا أسعار المساكن فى المهندسين والمعادى والدقى والعجوزة.. و.. لا شكر على واجب..

ولا تتحكم الحكومة هناك.. فتشترط على أرباب المعاشات الأوروبيين وحدهم.. السكن فى أطراف غرناطة.. لكن الأمر ينطبق أيضا على

المهاجرين الأسبان.. والعمالة الأسبانية فى الخارج .. التى تنتشر فى بلاد الله لخلق الله.. وكما يسافر المصرى للعمل بالسعودية والكويت وقطر.. يسافر الأسبانى للعمل فى أوروبا.. وأمريكا اللاتينية.. وهى رحلة سفر مؤقتة.. لأن الأسبانى كالمصرى.. لابد له من العودة.. وإن طال السفر.. للاستقرار والاقامة فى الوطن ومسقط الرأس.. وبالمرة يستفيد من الاعفاءات الحكومية.. أسوة بأصحابنا من أرباب المعاشات الأوروبيين.

تشجع الحكومة أبناءها على السفر والهجرة للخارج.. على اعتبار أنهم مصدر محترم للعملة الصعبة.. وتعفيهم تماما.. من جميع أنواع الضرائب.. لسبب بسيط ومنطقى.. هو أنه يدفع الضرائب بالفعل.. فى بلاد المهجر.. ومن غير المعقول أن يدفع الضرائب مرتين.. كنوع من العقاب.. كما تفعل دول أخرى.. وعند عودة الابن المهاجر لتراب الوطن بتحويشة العمر.. تستقبله الحكومة بالأحضان والسلامات.. وتشجعه على شراء مسكن خارج كردون المدينة.. فتقدم الأرض بأسعار رمزية.. مع الاعفاءات المحترمة.. والقروض البنكية المناسبة.. والنتيجة أن الأسبانى يكدح فى الخارج سنة واثنتين وعشرا.. لكن حلم العودة والاستقرار فى بلاده لا يفارقه.. لأن العودة تعنى المنزل المستقل وبأسعار مناسبة..

ومن حسن الحظ.. أنهم لا يعرفون اختراعا.. اسمه الوزير الرزاز.. يتفنن فى نبح الفرخة التى تبيض ذهبا.. ولا يوجد عندهم مسئول فهلوى.. يلتف حول القرارات والقوانين المستقرة.. من أجل تحصيل الضرائب السيريالية.. واحدة لتصريح العمل.. والثانية لتسهيل العمل.. والثالثة لاستمرار العمل.. والرابعة لانهاء العمل.. والمهم أن فوقه

ضريبة المبيعات..!!

ولهذا لا يفكر الأسبانى أبدا.. فى قطع تذكرة سفر بدون عودة.. أو أن يطفش خارج البلاد.. أو يؤجل اجازاته.. حتى لا يتعرض للمشاكل والبهدلة.. لا لشيء.. إلا لأنه يقبض بالدينار والريال.. أبو تسعين قرشا..

المثير فى الأمر.. أن أسعار المساكن فى غرناطة مستقرة تماما.. لأن هناك توسعا عمرانيا.. وبالتالى لا يعرفون المضاربة على الأراضى والشقق.. وعندهم يافطة شقة للايجار.. لأن المهاجر الأسبانى.. وقد عاد ليستقر فى أرض الوطن.. يحتاج للسوبر ماركت والبقال والسينما والمستشفى والحدائق العامة.. وهذه مهمة الحكومة ووظيفتها.. تقوم بها من أجل خاطر المواطن.. الذى حضر لبلاده بتحويشة العمر.. فساهم بفلوسه.. فى التخفيف من أزمة المساكن..

ولهذا فإن سمعة الأسبانى فى أوروبا.. أنه حمار شغل.. ولامؤاخذة.. يشتغل صبحا وظهرا وفى المساء والسهرة.. يكدح أكثر.. ويتعب بالزيادة.. ويحوش فلوسه.. وإذا كانت أوروبا تشده بالفلوس والثروة.. فإن أسبانيا الأم تناديه.. وهناك حلم جميل ينتظره.. بالاستقرار والراحة.. بعد العناء والتعب.. من أجل تكوين أسرة المستقبل.. والملاحظة العامة.. أن الأسبانى لا يتزوج أبدا من خارج بلاده.. عكس الأسبانية.. التى تتزوج من ابن الحلال المناسب.. بصرف النظر عن الجنس أو اللون..

وتشير الاحصائيات.. إلى أن هناك ٣ ملايين أسبانى.. يعملون فى أوروبا وأمريكا اللاتينية.. وحوالى نصف مليون يعملون فى الولايات المتحدة.. ودول شرق آسيا.. وأنهم يحولون إلى بلادهم سنويا.. ما يزيد

على عشرة مليارات دولار.. وتؤكد الاحصائيات.. أن عدد المهاجرين الأسبان.. الذين يعملون فى أوروبا بالذات.. سوف يتضاعف حتما.. مع استقرار القوانين الأوروبية الموحدة.. التى تسمح للأوروبى.. بالعمل والاقامة والاستقرار.. فى أية دولة أوروبية أخرى.. بصرف النظر عن جنسيته الأصلية.. وأسبانيا طبعا.. بالاشتراك مع البرتغال واليونان.. سوف تكون من الدول المصدرة للعمالة.. نظرا لانخفاض مستوى الأجور بها.. عكس دول أوروبا الغنية.. مثل ألمانيا وفرنسا وانجلترا.. التى تدفع لعمالها أعلى أجور فى العالم.. وبالعملة الصعبة أيضا..!!

أجمل ما فى الحدوتة. أن المسائل محكومة وتحت السيطرة.. ومع أن أسبانيا بلاد تعشق الحرية.. وتتشدق بالديمقراطية.. إلا أن الحرية مشروطة بألا تعتدى على حرية غيرك.. وهناك لا يعرفون المساكن نظام سمك لبن تمر هندى.. ومع أن المناطق الجديدة.. مخصصة للأغنياء.. سواء أغنياء أوروبا.. أو أغنياء أسبانيا من المهاجرين.. إلا أنها ليست مناطق عشوائية.. والقانون هناك لا يعرف زينب.. ولا يستطيع الواحد منهم أن يبنى على كيفه.. والبناء طبقا لنظام معمارى صارم.. والبيت لا يزيد ارتفاعه على دورين.. ومدهون من الخارج باللون الأبيض الجميل.. والشبابيك لونها بنى داكن..

ولا يوجد قريب للمحافظ.. يبنى ناطحات سحاب وسط البيوت.. لأنهم لا يعرفون ناطحات السحاب أصلا.. ثم إن المحافظ عندهم بالانتخاب.. لا يملك أن يرتكب مخالفة واحدة.. ولا يعرفون هناك الحاجة كاملة.. ولا يوجد واحد مسنود.. يدهن بيته بالأحمر أو الأخضر.. لأن الحكومة سوف تقوم فورا باعادة دهن البيت باللون الأبيض.. على حساب صاحبنا.. الذى سيقضى اجازة ظريفة.. فى تخشيبة السجن.. وبدون

عيش وحلاوة.. لأنهم لا يعرفون الحلاوة الطحينية هناك..
ومن غرائب الأمور.. أن غرناطة الحمراء.. التى تحيط بها الخضرة من كل جانب.. بفضل جبال «سييرا نيفادا».. والتى يضم كل بيت فيها حديقة صغيرة.. لا تمانع فى مد الحدائق الاضافية حول المربعات السكنية.. وهى حدائق جميلة فعلا.. أجمل ما فيها ساعة المغربية.. حيث تخرج العائلة بكامل هيئتها .. الأب والأم والأبناء.. يتمشون فى الحدائق.. ويتكلمون ويتناقشون ويضحكون.. أو يقفون طوابير أمام السينما الصيفى.. فى منظر يفكرنا بأيام زمان.. وسينما الروضة وجرين والجزيرة فى المنيل.. وسينما الهلال فى السيدة زينب.. وهى السينمات الصيفى التى كان سعر التذكرة فيها ثلاثة صاغ.. والتى تحول معظمها إلى جراجات ومخازن خردة.. بفضل سياسة الانفتاح.. والتى باغلاقها.. انغلقنا على أنفسنا.. رغم الانفتاح الاقتصادى.. فعرفنا الكبت والاكتئاب والحدة والتعصب والتطرف..
ولأنها بلاد حارة.. فمن الطبيعى أن يكون الشورت هو شعار المرحلة.. وهو الزى الرسمى.. الأب بالشورت الكلاسيكى.. والولد بالشورت الموضة.. والبنت بالشورت الساخن.. وحتى الست الوالدة.. بشورت تفصيل من قماش العرض عرضين.
وما أحوجنا فى ظل طقسنا الحار.. للخروج والذهاب للشغل بالشورت.. حيث المناخ المصرى.. الحار خالص صيفا.. ولا أدرى من الذى روج للشائعة التى تقول إن مناخنا حار جاف صيفا.. مع أنه رطب جدا.. والحقيقة أنه حار «سونا» صيفا.. نسبة إلى حمامات السونا.. التى أراهن أن السادة فى أوروبا الغربية قد اخترعوها.. لتذكرهم بجو القاهرة الحار الرطب..

ومن غير المعقول.. والشمس تجلد رؤوسنا.. والرطوبة تسلخنا ظهرا وعصرا.. أن نذهب للشغل.. ونحن نرتدى القميص والبنطلون والجزمة والشراب.. وأحيانا البدلة.. لزوم العياقة والبروتوكول..

أنا شخصيا.. ومن باب كسر القواعد.. ومحاربة الجمود.. وإثباتا لحق من حقوق الانسان.. ارتديت ذات يوم الشورت الشرعي.. وخرجت من بيتى فى حوارى المنيرة.. قاصدا «روز اليوسف» على بعد شارعين.. وقلت فى نفسى إن المسألة فى حاجة إلى ثورة.. وإلى ثوار يقومون بصدمة الجماهير.. من أجل تكوين «لوبى» ورأى عام ضاغط ومؤيد للشورت.. وقلت إننى سأبدأ بنفسى.. ومن المؤكد أن هناك آخرين يمكن أن يكملوا المشوار بعد ذلك..

وبالفعل.. نجحت مهمتى التنويرية.. وقد فوجئت الجماهير العريضة.. من الأهل والجيران.. برؤيتى للوهلة الأولى بالشورت.. ورأيت الدهشة والاستغراب فى عيونهم.. وقدرت أننى نجحت فى الخطوة الأولى بالشورت.. كما نجحت فى الخطوة الثانية.. لتكوين الرأى العام القوى والمؤثر.. وقد التف حولى شباب المنيرة وعيالها.. لمشاهدة التجربة عن قرب.. ومن الواضح أننى نجحت بامتياز.. لأنهم اقتربوا منى أكثر.. فى مظاهرة حاشدة.. ورفعونى فوق الأعناق.. فى حب وتقدير.. وهم يهتفون من أعماق قلوبهم: «العبيط أهه.. أهه!!».

وكأنك يا أبوزيد ما غزيت ٦



وانفض المولد.. وتبخرت الجنيهات والدولارات والاسترليني.. ابتلعتها «البيزيتا» الأسباني الضعيفة.. وكانك يا ابو زيد ما غزيت.. ولم نتمكن بعد من رؤية كل الأماكن.. وقد وقعنا فى عشق الأندلس.. وتمنيت لو قضيت هناك عامين اضافيين.. للسياحة والفرجة على راحتنا.. وفكرت جديا فى لحتراف التسول.. لاستكمال المشوار والمسيرة.. عسى أن يفتح الله علينا.. بلقمة نظيفة وفسحة حلوة.. ومن يدرى.. ربما لعبت البلية.. وانفرجت الأحوال.. فندعو الأهل والأصحاب للانضمام للمشروع الاستثمارى الناجح.. وبالمرة نؤسس شركة عائلية فى أسبانيا.. نسميها «شحاتكو» للخدمات المناولة.. على أساس أننا نناول الشحات الحسنة.. والقسمة والنصيب.

لكن المشكلة أن التسول فى أوروبا كلها وظيفة.. لها قواعد وقوانين.. وهو ما أفسد الصورة الرومانتيكية عن التسول والمتسولين. والمتسول يؤجر المكان من الحكومة.. بعد كشف الهيئة.. والاطلاع على المؤهلات.. ولكل متسول منطقة نفوذ.. يمارس فيها المهنة.. ولكل واحد فرع محدد من فروع التسول.. فهذا يشحت بزهرة صغيرة.. والثانى يشحت بالموسيقى.. والثالث يسرح بالكلينكس.. والرابع يشحت بالرسم على الرصيف.. والخامس يشحت كحيتى.. يعنى يمد يده بوضوح.. ودون خجل أو كسوف..

وكنت أتصور فى الماضى.. أن التسول هو سلاح العاجز والضعيف.. فإذا به وظيفة حقيقية.. يدفع عنها ضرائب وتأمينات ويدفع ايجار الشارع لحضرة ضابط البوليس.. الذى ينظم المسألة تنظيما دقيقا.. وياويله

وياسواد ليله.. من خرج من منطقته ليعتدى على منطقة نفوذ زميله.. أو احترف فرعا آخر للتسول غير فرعه الأصلى..

وتختلف الأماكن طبعا.. فشحات الميادين.. يدفع للحكومة أكثر من شحات الحوارى.. وشحات المناطق الراقية والسياحية.. يدفع ربما بالدولار أو الاسترلينى.. وحلم شحات الحوارى.. أن يفتح الله عليه بناصية مهمة.. يمارس فيها نشاطه وأكل عيشه..

ومن المؤكد.. انه مادام هناك بوليس وتنظيم دقيق.. أن هناك نقابات عامة وفرعية.. ومراقبى ضرائب وحسابات ومسك دفاتر.. حتى لا يتهرب متسول واحد.. من دفع الضريبة المقررة.. وهو اقتراح نهديه للرزاز.. فربما استطاع تحصيل كام مليون اضافية.. وخصوصا أن المهنة مزدهرة فى مصر.. وتشهد الآن انتعاشا حقيقيا..

الحل إذن.. ومادمنا لا نملك المؤهلات المطلوبة للتسول.. أن أعلق شنطة هدومى على كتفى.. والسياحة والتجول برخص التراب.. مع مجموعات السائحين الأخرى.. وليس هناك أفضل من السائح.. ليشرح لك البلد الغريب.. وخصوصا أننا لا نعرف لغة البلد.. فالسائح بعينه المتطلعة.. التى تلتقط المثير وغير المألوف والمدهش.. هو الأقدر على توصيل المعلومة إليك.. وبرخص التراب.. وخصوصا أن سلطات السياحة هناك قد قامت بواجبها.. فطبعت خرائط كثيرة بالمجان.. وبالتفصيل الممل لكل الأماكن المهمة وغير المهمة.. وبجميع اللغات الحية والميتة والمغمى عليها.. وخرائط أخرى لجميع خطوط الاتوبيس.. وخرائط ثالثة للفنادق والبنسيونات.. ابتداء من فنادق الخمس نجوم.. وانتهاء بفندق الكوكب الزينبى.. وأوضحت عليها الأسعار بالتفصيل.. حتى لا تخضع المسألة لشطارة أو فهلوة.. ولم تنس سلطات السياحة.. أن تقدم كشفا بأسعار التاكسى بالضبط.. وتبعا لعدد الكيلومترات التى يقطعها التاكسى.. وأرقام تليفونات كثيرة.. لتشكو إليها.. لو حاول سائق تاكسى فهلوى.. أن يستغل جهل السائح بالتعريفة والأسعار.

وبالفعل.. وفى ميدان القيصرية.. وبالقرب من المدرسة العربية القديمة..

التى تحولت إلى جامعة دراسية فى القرن الماضى.. تعرفت على مجموعة من السائحين والسائحات الدانمركيين والسويديين.. وعرفت أن أهم ما يمكن زيارته فيما تبقى لى من أيام معدودة.. هو مرتفعات «ريال حسان» والاسم عربى كما هو ظاهر.. ويطلق على أعلى نقطة سلسلة جبال «سييرا نيفادا» ومنها تطل على أسبانيا كلها.. والمنطقة على ارتفاع ٣ آلاف و٤٠٠ متر.. والصعود إليها بالاتوبيس يستغرق خمس ساعات.. ثم نكمل الرحلة على الأقدام لساعتين بعد ذلك.. وطبعا لا وجه للمقارنة بين جبال سييرا نيفادا وبين قمة «مونت بلانك».. فى جبال الألب.. حيث يصل ارتفاع الأخيرة إلى ٤ آلاف و٥٠٠ متر، أو قمة ايفرست الشهيرة.. فى جبال الهيمالايا.. حيث يقفز الارتفاع إلى ٩ آلاف متر.. ولا وجه للمقارنة أيضا.. بين سلسلة جبال «سييرا نيفادا» التى يبلغ طولها ٧٠ كيلومترا بمحازاة الشاطىء.. وبين سلسلة جبال الألب.. التى تمتد طولا لحوالى ألف كيلو متر.. وتخترق فرنسا وسويسرا وايطاليا وألمانيا والنمسا..

وأهمية «سييرا نيفادا» الحقيقية.. هى أنها قريبة جدا من البحر.. عكس جبال الألب الأوروبية.. والبعيدة نسبيا عن البحر.. ومع أن «سييرا نيفادا» يصل ارتفاعها الى ٤ آلاف متر.. وطولها ٧٠ كيلو مترا.. فقد كانت تتعرض للازالة منذ حوالى ألف و٤٠٠ سنة.. والحكاية أن حاكم الأندلس.. ومؤسس الخلافة الأموية هناك عبدالرحمن الناصر.. الشهير بصقر قريش.. كان قد أهدى لاحدى جواريه قصرا جميلا عند سفح الجبال.. وبالقرب من مدينة قرطبة.. لكن الجارية رفضت هدية الأمير.. والسبب أن جبال «سييرا نيفادا» تحد من امتداد بصر الجارية الجميلة.. وتقطع عليها الانسجام والتأمل.. فأمر عبدالرحمن الناصر رجاله.. بازالة الجبال فورا.. من أجل خاطر عيون الجارية.. ومن حسن الحظ أن صقر قريش قد قضى نحبه.. قبل أن يتمكن من استكمال المشروع الغريب.. وبقيت جبال «سييرا نيفادا» تخرج لسانها لأغرب حكم عليها بالاعدام..

ولعل أجمل ما فى «سييرا نيفادا» انك تشاهد بنفسك.. وبالصوت والصورة.. كيفية ولادة النهر.. الذى يتخلق من الندى المتجمع على

الأشـجـار الكثـيفـة.. ومن نوبان الجليد بفعل الشمس فى قمـة الجـبل.. فيتكسر فى جداول صغيرة وكثيرة.. تتجمع معا فى جدول أكبر.. تخترق الجبل مع آلاف الجداول الأخرى.. تنضم سويا فى نهر صغير.. يواصل مسيرة الاختراق.. يمتد ليلتقى مع عشرات الأنهار الصغيرة.. لتصبح فى النهاية نهرا كبيرا.. هو نهر «الدلرو» الذى ينقسم فى منتصفه بالضبط إلى فـرعـين.. احـدهمـا يذهب مـبـاشـرة إلى المحـيط الأطلنطى أو بحـر الظلمات.. بعد ان يخترق شمال أسبانيا.. والفرع الآخر يصب فى البحر المتوسط.. مخترقا جنوب اسبانيا..

ومن نقطة متوسطة من الجبال.. تقع ما بين غرناطة وقرطبة.. تقف مدينـة «العين» شامخة.. وهى إحدى المدن العربية القديمة.. التى اشتهرت بقلاعها.. التى تراقب البحر المتوسط.. وتفتش عن أساطيل الغزاة.. من بلاد المغـرب الفـاطمية.. أشـهر هذه القلاع هى قلعة «سانتـا كـاتالينا» الضخمة.. وقد تحولت إلى فندق جميل من فنادق الدرجة الأولى.. اشتهر بانه الفندق الذى تقصده العرائس والعرسان.. لقضاء شهر العسل.. وقد احتفظ الفندق بطابعه التاريخى.. وحوائطه القديمة.. وملابس ودروع وسيوف فرسان العصور الوسطى معلقة على الجدران.. لتشكل متحفا مفتوحا..

والفندق يكاد يشبه قصر محمد على فى المنيل.. والذى تحول إلى فندق أيضا.. ولكن الفارق انهم هناك مهتمون جدا بالقلعة وطابعها المميز.. وبالنظافة امامها.. عكس الحال فى منيل بالاس.. حيث تتكوم الزبالة امام الفندق الجميل.. والمهم أن شرطة السياحة.. تحتل نصف واجهة الفندق.. وتوافق مشكورة على الزبالة.. ولعلها تساهم فيها.. وتستولى بوضع اليد على أماكن انتظار السيارات.. لتحجزها للسادة البهوات والباشوات ضباط السياحة.. فى حين يصعب على السائح او عابر السبيل او نزيل الفندق.. أن يركن سيارته..

والظاهرة العامة فى أسبانيا.. أن هناك موقف سيارات ضخما أمام جميع المناطق السياحية.. ومن الواضح ان سنة اولى سياحة تقول انه من

الضروري توفير جراجات لخدمة السياحة والسياح.. عكس الحال في ميدان سيدنا الحسين.. حيث يتحكم «ثلاثة منادين وصول متقاعد».. في حركة السياحة ومرور السيارات.. وأراهن انك تستطيع أن تركن سيارتك بدون المرور على حضرة الصول والأخوة المنادين..

أما في أسبانيا.. فالمنادى ممنوع.. والأماكن متوافرة.. والدخول إليها بفلوس.. ولو تمكنت السياحة أو الثقافة أو الآثار.. أن تنظم الدخول وركن السيارات في منطقة سيدنا الحسين وباقي الأماكن الأثرية.. فسوف تكسب ذهبا من عيار ٢٤ قيراط.. يذهب بالفعل لحضرات البلطجية المنادين..

وأسبانيا التي تحتل المركز الأول وعن جدارة.. في سوق السياحة العالمية.. تدرك هذه الحقائق.. بدليل الخرائط والنظافة والنظام.. وأماكن وقوف السيارات.. والخدمات الكثيرة من أجل خاطر عيون السائح.. وهي تدرك أن السياحة صناعة حقيقية.. تساهم بالفعل في تحسين الدخول.. واعلانات أسبانيا في أوروبا.. تدعو السائح بوضوح لزيارة أسبانيا بلد الأمن والنظافة.. مع أن مسألة الأمن بالذات تحتاج لمناقشة.. خصوصا مع ما يحدث في اقليم الباسك الانفصالي.. وحوادث الارهاب التي لا تقل بحال من الأحوال.. مع ما يحدث عندنا.. لكن أسبانيا الناصحة.. تتجاوز عن ذلك وتركز على جوانبها الايجابية.

وأسبانيا التي توجه الرسالة للسائح الأجنبي.. لا تنسى السائح المحلي ابن البلد.. وعشرات من سيارات السياحة الضخمة.. تقل أهالي أسبانيا في رحلات منتظمة لرؤية الأماكن.. والتعريف على التاريخ.. ورحلات تلاميذ المدارس والجامعات.. تركز على زيارة الأماكن السياحية التاريخية..

نقصد أن أسبانيا تنظر للسياحة على انها مورد حقيقي للدخل.. بدليل أن غرناطة مثلا.. أو قرطبة.. لا تملك سوى السياحة الداخلية أو الخارجية.. وعندما تهتم السلطات هناك.. بترميم المساجد.. واحياء التراث العربي.. فهي لا تفعل ذلك من أجل خاطر عيون التراث.. وإنما هي تضرب خمسين عصفورا بطوبة واحدة.. فهي تكسب عملات صعبة.. وهي تكتسب سمعة طيبة في مجال الثقافة بدليل أن اليونسكو يساهم في الترميم

والتجميل.. ثم أن الاهتمام بالتراث.. يعني أن التلميذ الأسباني الذي يدرس تاريخ بلاده.. سوف يفهم الدرس بصورة افضل.. لأن التاريخ الأسباني وببساطة.. هو التاريخ المرتبط بالحضارة الأندلسية..

ووالله العظيم.. إنني مستعد لأن أعمل مرشدا سياحيا متطوعا.. للسادة مسئولي السياحة والآثار في مصر.. في زيارة لغرناطة أو قرطبة أو العين.. ليتعرفوا على الطبيعة.. كيف يهتم الآخرون بالتراث.. وكيف يمكن أن تتحول منطقة الأزهر والغورية وحواري مصر الفاطمية.. إلى مصدر حقيقي من مصادر الدخل.. وحتى يمكن لنا أن ننافس أسبانيا.. التي تقوم الآن بتحويل غرناطة الأندلسية.. إلى مركز حقيقي من مراكز التراث الإسلامي..

وأقر وأعترف.. انه كما يقع الانسان في الحب من أول نظرة.. فقد وقعت أنا في حب الأندلس.. ومن الزيارة الأولى.. التي جاءت بالصدفة التي هي خير من ألف ميعاد.. شيء واحد ينغص عليّ زيارتي.. هو انني لم أشاهد مصارعة الثيران.. لأن موسم المصارعة لم يبدأ بعد.. ومع انني لست من هواة المصارعة على اختلاف أنواعها.. ولست من المهتمين بمصارعة الثيران بالذات.. لأنها ليست مصارعة مفتوحة.. يساق فيها الثور الغلبان.. إلى الساحة.. لتحاصره العشرات من المصارعين الكومبارس بحرابهم وسيوفهم.. فينزلون فيه تقطيعا.. قبل أن يدخل المصارع الرئيسي «البريمادور» بملابسه المزركشة.. ليخلص على الثور المنهك.. في ضربة واحدة. ومع انني لست من هواة مصارعة الثيران.. فقد سعيت لمشاهدتها دون جدوى.. والحل الوحيد هو العودة من جديد لأسبانيا الجميلة.. لكي أشاهد مصارعة الثيران.. وبالمرة أزور الأهل والأصدقاء.. في البايسين والحمراء والقيصرية والعين والحمام.. أجلس في المقاهي أشرب شاي بالنعناع.. وأتجول في الحواري.. وأقع في غرام بنت أسبانية جميلة.. من بنات العم أو الخال.. لنعيد وصل ما انقطع من حكايات التاريخ.. وغزوات الماضي البعيد.. وإن عضنا الجوع.. أطلب لها واحد فول بالزيت الحار.. و.. على حسابي.

٧

العرب فى اوروبا ممنوع الاقتراب والتصوير



قررت أن أخذ بنصيحة صديقى على سالم.. وأن اتزوج على سنة الله ورسوله من سنيورة سويسرية.. تفتح لى أبواب المجد والثراء.. وتنقلنى بجرة قلم.. وتوقيع مأذون.. من مواطن غلبان من مواطنى العالم الثالث.. يحترف الوقوف فى طوابير المنحة وسلف المدارس.. إلى بيه محترم من رعايا العالم الأول.. يركب التمساحة والخنزيرة والشبح.. ويصرف بالاسترلينى والدولار.. ويدخن السيجار والبايب.. بعد البلمونت والكليوباترا..

ومن الواضح أن على سالم ليس موهوبا فقط فى المسرح والدراما.. لكنه أيضا خبير فى شئون الحريم وعلم الأجناس.. بدليل أنه أكد اننى بالذات الشخص المناسب تماما للبلاد السويسرية..

فأنا أسمرانى اللون.. أكرت الشعر.. مشلفط الملامح.. وهى مواصفات تغرى نصف بنات سويسرا بالجرى ورائى.. وتغرى نصفهن الآخر بالفرجة والتصفيق.. فالبنات هناك قد زهقن تماما من أصحاب الوجوه الوسيمة والشعر المسبسب.. والموضة الآن هى التغيير والبروسترويكا.. والاقتران بأسمر الملامح واللون الشيكولاته.. وهى مواهب أمتلك منها الكثير والحمد لله..

قبل أن أركب الطائرة.. همس لى على سالم: لا تنس أن ترفع رؤوسنا.. فأنت مندوبنا السامى.. وممثلنا الشرعى والوحيد فى بلاد الفرنجة..

فقررت الا أخيب رجاءه.. فهو الأدرى.. وقديما قالوا أكبر منك بيوم يعرف أكثر منك بسنة، وعلى سالم يعرف أكثر منى بألفين سنة على الأقل.. وما دام يرى أننى أنفع فالنتينو بدون جوان.. فلابد أن أكون كذلك.. وما دمت قد زرت بلاد الخواجات.. فلابد أن أناسبهم.. وأن أغزو قلوب بناتهم.. وأشعرهن باللوعة والوجد.. وأن أعيد إليهن بالصوت والصورة.. قصص الغرام الشهيرة.. وسحر ألف ليلة وليلة.

فتوكلت على الله.. وفور نزولى من باب الطائرة.. شمرت أكمام قميصى..

ولبست الجينز آخر موضة.. وفردت طولى.. وشفطت للداخل كرشى المتكور والمهتز طربا.. دليلا على سوء التغذية فى الصغر.. حين كنا نأكل أى شىء.. وكل شىء.. خوفا من الجوع.. بعد ذلك.. و.. مشيت أتهادى وأستعرض نفسى.. ويا شوارع سويسرا اتهدى.. ما عليك قدى..

وقد قررت الا اتواضع.. فلا أكتفى بواحدة أو اثنتين.. كما تفعل الناس الغشيمة.. لكننى كفالتتين محترم.. وضعت أمامى هدفا واضحا.. وخطة خمسية.. فى الخمسة أسابيع التى اقضيها فى سويسرا.. بالزواج من أربع بنات دفعة واحدة.. فالبنات على قفا من يشيل.. والصحة من حديد والحمد لله.. لكنها قلة الوقت.. والبخت والنصيب..

مر على يوم واثنان وعشرة.. وأنا لا أتقدم خطوة واحدة.. كل يوم أجوب الشوارع.. سواح وماشى فى البلاد سواح.. والبنات سبحان الله.. على كل لون ومن كل بستان.. شقراء وخمرية وسمراء.. طويلة ورفيعة وسمينة.. ولا واحدة تضع فى عينها حصوة ملح.. وتلتفت إلى كامل الأوصاف.. وفارس الأحلام.. الذى لم يأت على حصان أبيض عادى.. وإنما على بوينج إيرباص.. كلفتنى تذكرتها الشىء الفلانى..

بصراحة.. زهقت من مسألة اللف والدوران.. وكأننى عسكرى دورية.. أو كأن علىّ طابور ذنب.. وأنا فارد طولى.. شافط كرشى.. حتى أدركنى اليأس.. ووجعنى العمود الفقرى.. وبلى منى الحذاء.. وتدهورت أحوالى.. وبنات سويسرا ولا هن هنا.. مع أننى تنازلت عن شرط الزواج بأربع.. وقررت الاقتران ولو بواحدة.. بشرط أن تكون بيضا.. بيضا.. بيضا.. بغرض واحد وحيد.. هو تحسين النسل فى عائلتى الكريمة.. وادخال الهجين الرومى.. وانجاب بنات وبنين من صلبى.. يرطنون لغات أجنبية..

وسويسرا بالمناسبة.. تتكلم ٤ لغات..

أولها: الرومانش، وهى لغة أهالى الجبال.. وهى لغة تقليدية قديمة ومنقرضة.. تنحدر من أصول لاتينية.. ويحاولون إعادة احيائها هذه الأيام..

وبالاضافة إلى ذلك.. يتكلمون ثلاث لغات أخرى.. هى الفرنسية والألمانية والايطالية.. لا يتحدث محسوبكم منها سوى اللغة العربية..

ومن الواضح أن اليأس والخيبة قد سيطرا على حالتى النفسية.. لأنه عندما هلت على الميدان الذى جلست فيه التقط انفاسى من طابور الخدمة الاجبارى.. عندما

هلت حسناء جمالها كما في الكتالوج.. وقد جلست على الأريكة في الميدان بالقرب مني.. وراحت تنظر إلى نظرات الود والهيام.. لم يفتح الله علي.. وأنا إتقدم نحوها.. اقدم رجلا.. وأؤخر الأخرى.. وأمد يدي في رجاء.. وأنا أصرخ من أعماقي: مدموازيل.. مدموازيل..

ويبدو أن المدموازيل قد أدركت أنني لم آكل منذ عشرة أيام.. لأنها سحبت يدها ووضعت في كفي الممدودة خمسة فرنكات.. وهي تقول «يحنن» بالفرنساوي.. ومضت وهي تلعن حظها النحس.. الذي أوقعها في شحاذ أبكم.. وتركتني وحيدا مكبوسا.. كالغراب النوحي.. يغني ظلموه على الأطلال..

في مكتبة بالأمم المتحدة.. ومن بين كومة الأوراق الهائلة أمامه.. رفع صديقنا الكبير.. الأديب والسياسي والمترجم محمد مستجير رأسه.. وقال لي بلهجة الخبير الواثق:

لقد جئت متأخرا عشرين سنة على الأقل.. ولهذا لا يمكن أن تتزوج السنيورة التي تفتش عنها..

- وهل كل سنيورات سويسرا قد تزوجن بالفعل من عشرين سنة!!

- أقصد أن الزواج الذي تسعى إليه.. والذي يبدأ بالاعجاب والصداقة والحب والمأذون والأولاد.. قد انتهى أمره.. الزواج الآن بين السويسريات والأجانب من أجل هدف واحد هو «البيزنس» المشترك.. العريس يسعى للحصول على تصريح بالاقامة والعمل.. والعروس لا تمانع بشرط أن يدفع العريس..

وهناك الآن مكاتب سرية متخصصة.. تستطيع من خلالها الزواج بنية واحدة والسلام.. وهو ليس زواجا حقيقيا.. ولو كنت محظوظا.. لن ترى زوجتك سوى مرة واحدة.. عند توقيع عقد الزواج.. أما لو كنت كعادتك منحوسا.. فسوف ترى الزوجة كل يوم.. ومعظم الزوجات عن طريق تلك المكاتب.. عجوزات شمطاوات.. أكل الزمان عليهن وشرب وأخذ تعسيلة ونام.. وهن لا يمانعن من الزواج من حضرتك.. بشرط أن تدفع نسبة محترمة من مرتبك الاسبوعي أو الشهري.. لأنك بالزواج.. سوف تتمكن من العمل والاقامة..

وللأسف.. لا يتورط في هذه الزيجات سوى أهطل من العالم الثالث.. يسعى للركنة في سويسرا.. أما رعايا العالم الأول.. من أوروبا وأمريكا.. فهم أبناء عمومة السويسريين.. والأقربون أولى بالرعاية والمعروف.. وهم يدخلون الأراضي السويسرية بدون فيزا وبالبطاقة الشخصية، ومن حقهم طبعا الاقامة والعمل.. أما

مواطنو العالم الثالث.. فخيبتهم ثقيلة.. يحتاجون لأوراق وأختام وجوازات وضمانات بنكية وشهادات بحسن السير والسلوك.. حتى يتمكنوا من دخول البلاد.. ولهذا يلجأون إلى الطريق السهل.. طريق المكاتب السرية.. للزواج من عواجيز انتهت مدة صلاحيتهن.. والمصيبة أن بعضهن يتمسك بالزواج بحق وحقيقي.. طمعا في تجديد شبابهن الذي ولى منذ كام مليون سنة..

أما الزواج كباقي خلق الله.. من ستيورة حسناء.. فهو من رابع المستحيلات لسبب بديهي.. هو انك عربي بالباسبور والطباع والملامح.

-نعم.. والخيل والليل والبيداء تعرفني..

-كان زمان وجبر يا صديقي.. كلمة العربي الآن.. مرادفة للقسوة والخيانة.. والجليطة وقلة الضمير.. والذي صنع هذه السمعة.. ليس وسائل الاعلام. واللوبي الصهيوني.. كما اعتدنا أن نقول.. لكن الذي صنعها هم العرب أنفسهم.

زمان.. عرفت سويسرا زيجات كثيرة من مهاجرين ومواطنين عرب.. توانسة وجزائريين ومغاربة.. وأحيانا من مصر ولبنان.. وللأسف انتهت بعض هذه الزيجات نهايات تراجيدية.. تناقلتها الصحف كالحواديت وقصص الفولكلور..

وهي حكايات تنتهي دائما بحكمة ونصيحة.. تنقلها الأم إلى ابنتها بطريق مباشر أو غير مباشر.. بأن العربي ليس هو فارس الأحلام المنتظر..

قبل الزواج.. يبدو المهاجر العربي رقيقا.. ودودا.. عطوفا.. «جنتلمان» متحضرا.. وهي صفات تأسر قلب البنات هنا.. في مجتمع المادة والمنطق والسرعة والكمبيوتر.. وحساب كل شيء..

بعد الزواج.. يتحول المتحضر العصري.. إلى رجعي محافظ يخرج من جيبه بعد انتهاء شهر العسل قائمة طويلة بالممنوعات.. ممنوع الخروج.. ممنوع الفسح.. الكلام مع الآخرين ممنوع.. الضحك بدون سبب قلة أدب..

والداهية لو سافرت العروس إلى بلاده.. ساعتها سوف يتحول إلى سي السيد مضروب في عشرة.. ويفرض عليها الحجاب أو النقاب.. ومصاحبة أمه وخالاته في بيت العائلة الكبير.. فإن عصت أو اعترضت.. حبسها وضربها.. وتزوج عليها.. ولا تنس أن الشرع يبيح له ذلك..

ولو كان أخونا العربي «جدع» وابن ناس.. سرحها بالمعروف.. واحتفظ طبعا بالأولاد.. لتعود إلى بلادها مكسورة الجناح.. لتبدأ مشوار المحاكم والقضايا.. من أجل حقها في رؤية أولادها.. وحتى إذا حكمت لها المحكمة.. لا تستطيع تنفيذ

الحكم.. لأن الأولاد في بلد الزوج.. وهناك الف وسيلة ووسيلة لتعطيل الحكم والتحايل عليه..

ومن المؤكد أن اخانا العربي ـ ولا أقول كلهم ـ يضع قناعا.. قشرة حضارية.. تخفي ملامحه الحقيقية قبل الزواج.. أو قل إنه يعاني من الشيزوفرينيا وازدواج الشخصية.. فيتصرف قبل الزواج في بلاد الخواجات برقة وشاعرية وعصرية..

أما في بلاده.. فتظهر شخصية أخرى الشرير المستبد.. المستوعب جيدا لقاموس الشتائم والنعوت التي تبدأ من الأم الأولى.. وتنتهي إلى الجد السابع.. ولهذا تفشل العديد من الزيجات.. وطبعا تساعد الصحافة والاعلام في تضخيم الأمور.. وبالتالي أصبحت سمعة العربي في الزواج.. كالماركة المسجلة.. ممنوع الاقتراب والتصوير..

المصيبة إن اخواننا العرب.. يزجون بالشريعة الاسلامية.. في علاقاتهم بالمجتمع.. بمناسبة وبدون مناسبة.. يضرب الواحد منهم زوجته علقة ساخنة.. فإذا شكت للبوليس قال: الدين يعطيني الحق في تأديبها..

إذا خطف أولاده وسافر.. برر المسألة.. بأن حضانة الأولاد من حقه هو.. لأنه لا يطمئن عليهم معها.. لسبب بسيط انها اجنبية لا تدين بالدين الاسلامي.. أو لأنها غير محتشمة.. وسمعتها ليست على مايرام..

وحتى عندما يتوكل العربي ويموت.. يستولي أهله على ركن من حديقة عامة تطل على بحيرة «الليمان» الشهيرة.. ويطالبون بتحويل الحديقة إلى مقبرة للمسلمين.. بحجة أن الدين الاسلامي يعطيهم الحق في الحصول على مقبرة خاصة بهم.. بعيدا عن مقابر المسيحيين..

باختصار.. صارت كلمة العربي.. مرادفة لكلمة المشاغب.. ولهذا تبتعد بنات سويسرا من الاقتران بالعربي.. وتفضل عليه أية جنسية أخرى لا تنطق لغة الضاد..

ومشكلتك يا صديقي.. انك جئت في الوقت الضائع.. بعد أن انفض المولد.. ووزعت الغنائم..

ثم إن الزواج هناك هو نهاية المطاف.. يعني المفترض أن تتعرف أولا على زوجة المستقبل في مناخ صحي.. في النادي.. أو المدرسة أو الجامعة.. أو في العمل.. أو حتى في القهوة.. وبذلك يمكن أن تنشأ علاقة محترمة.. تستمر شهورا وشهورا.. حتى تنتهي وتتوج بالزواج، أما البحث عنها في الشوارع.. فاسمح لي..

وعلى أية حال.. لو أردت أن تجرب حظك.. أنصحك بالذهاب إلى قهوة «ستيلا» في قلب جنيف المحطة.. يعني بجوار محطة القطار الرئيسية.. وهي قهوة أثرية جميلة.. اشتهرت بأن كارل ماركس جلس فيها يوما ما.. وميزة هذه القهوة.. أن معظم روادها يتحدثون الانجليزية.. التي تعرف عنها القليل.. وهناك جرب حظك.. ربما فزت بما تسعى إليه..

وقبل أن أقفز في أول أتوبيس إلى القهوة.. قال لي: لا تنس أن ترتب هندامك.. وأن تبدو محترما وقورا.. لأن اندفاعك للبحث عن عروسة.. قد يعرضك لمتاعب كثيرة..

وفي قهوة ستيلا.. جلست وقورا.. وقد جاءت جلستي بجوار وقور مثلي.. تجاذبنا أطراف الحديث.. كما تفعل الناس الوقورة.. وقد قدرت أنه يسعى مثلي للتعرف على بنت الحلال.. إلا أنه عندما سألني عن ذلك صراحة.. أنكرت بشدة.. وأكدت له أنني أكره البنات.. وأكره سيرتهن..

فهم الرجل الموقف.. وتجنب سيرة البنات.. وراح يتحدث ويحكي في كل شيء: الاقتصاد.. والسياحة.. والبطالة.. والمواصلات.. والشذوذ الجنسي..

في هذا الموضوع الأخير.. تحدث الرجل فأفاض.. فاستعرض أسماء المشاهير في التاريخ القديم والمعاصر.. الذين مارسوا الشذوذ.. فتكلم عن نابليون وأوسكار وايلد وغيرهما.. وتحدث أيضا عن كلينتون المرشح للرئاسة الأمريكية.. والذي تبنى مشاكل الشواذ.. والذين قرروا اعطاءه أصواتهم بالاجماع..

عند هذه النقطة.. توقف الرجل.. وسألني إذا كنت مشغولا الليلة.. لنواصل الحديث على انفراد..

فأجابني: أنت تكره البنات.. وأنا أكرههن.. فلماذا لا نكون سويا..؟!

سألته: وهل أفهم من ذلك أن حضرتك.. ولا مؤاخذة يعني.. حضرتك مثل أوسكار وايلد ونابليون.. يعني حضرتك كذلك؟!

- أنا «كذلك» فعلا.. وبدون مؤاخذة..

اندفعت أغادر القهوة.. وأنا ألعن في سري.. سويسرا.. وبنات سويسرا.. وكلينتون ونابليون و.. على سالم!!

الريان والسعد على الطريقة السويسرية

٨



لا يوجد فى سويسرا. بيه أو باشا.. مع أنهم مجتمع رأسمالى فيه الكبير وفيه الصغير.. وعندهم مليارديرات بحق وحقيقى.. وأغنياء وأصحاب أرانب.. وفقراء نص نص.. وعندهم وزراء وصنايعية وباعة جائلون.. وأساتذة جامعات وعاطلون وطلاب وجنرالات وكمسارية.. إلا أن لقب كل منهم هو «مسيو» بلا زيادة أو نقصان..

و«مسيو» تعنى يا سيد أو يامحترم.. وهم هناك ورغم التباين الكبير فى الثروة والدخل.. إلا أن المقام محفوظ.. والألقاب ممنوعة.. لم تمنعها ثورة اجتماعية.. أو انتفاضة شعبية.. ولكنها ممنوعة بحكم الأصول.. وبحكم أننا أولاد تسعة.. وبحكم أن الناس سواسية كأسنان المشط..

فى الصباح يقابلك السويسرى أو السويسرية.. وعلى الوجه ابتسامة عريضة.. وعلى اللسان عبارة «بونجور مسيو» وكأنهم بلديات أو معارف.. أو كأن بيننا «عشرة وعيش وملح»..

فى البداية.. تصورت أنهم يخصوننى بالتحية والسلام.. لأننى أجنبى وهم يكرمون الضيف.. لكنى اكتشفت أنهم هكذا على طبيعتهم.. وأن «بونجور» يعنى صباح الخير.. وأن كل فرد يبدأ اليوم الجديد بعبارة «بونجور مسيو».. «بونجور مدام».. الكل عندهم «مسيو» من أول الوزير وحتى الكناس. من البيه «المسيو» مأمور النقطة.. وانتهاء «المسيو» الخفير..

وفرحت بالمعاملة.. واندمجت جدا فى المجتمع والعادات السويسرية.. وفكرت أن أعانق كل من يقابلنى.. وأنا أريد بود حقيقى.. وقد اشتقت لمصر زمان.. ولأغانى الصباح المبكر فى صوت العرب.. «بونجور» عليكم ورحمة الله وبركاته..

ومصدر سعادتى بلقب «مسيو» الذى حصلت عليه فى سويسرا.. هو أننى لا أحمل ألقابا فى مصر.. فى ظل سيرك الألقاب الحالى.. فأنا مثلا لا أصلح باشا.. ولا أنفع بيه.. ولست أسطى.. أو معلما.. أو حاجا.. وملامحى ومظهرى لا يعطيان

اطباعا بأنني أشتغل بالصحافة. ومرة وقفت أشترى خضارا من المحل أمام روز اليوسف فجاءت واحدة هانم نظرت إلى من طرف منقارها وقالت لى هات ٢ كيلو طماطم وحطهم فى العربية !!

أما فى سويسرا فأنا «مسيو» محترم والكل هنا سواسية لا فضل «لمسيو» على «مسيو» إلا بالعمل والعطاء والانتاج فالذى يعمل يقبض ويوفر ويحوش ويشترى شاليها فى جبال الألب.. وشقة فى الريفيرا ويتفسح فى بلاد الله . وينام فى أحسن الفنادق.. أيا كان نوع العمل الذى يمارسه . أما المسيو الكسلان والعاطل عن العمل فهو يادوب يأكل لحما وخضارا وفاكهة ويسكن شقة بالايجار ويركب الاتوبيس. لكنه لا يزوغ من الكمسارى لأن التزويغ من الكمسارى جريمة مخلة بالشرف والاعتبار يعاقب صاحبها بغرامة ضخمة وربما يحبسونه حتى لا يعاود عملته المهببة..

لا يوجد فى سويسرا «مسيو» وظيفته الجلوس على باب الحمام بورق تواليت يعطيه لحضرتك وهو يقول شفيتم ويمد يده لكل خارج من بيت الراحة ولا يوجد «مسيو» ضخم يحتل نصف الأسانسير وظيفته أن يرفع يده بالسلام للخارج والداخل نظير حسنة حسب التسعيرة الجبرية ربع جنيه من كل واحد

المواطن فى سويسرا جدير بالاعتبار والاحترام إلى أن يثبت عكس ذلك فى مجتمع حقق الرفاهية لجميع أفراده . الغنى والفقير الشغال والعاطل..

ورغم ذلك فالفساد موجود عندهم كما هو موجود فى جميع مجتمعات الدنيا لكنه ليس على وده. الفساد أحيانا وليس طول الوقت والأوفر تايم أيضا الفساد هناك حالات فردية وليس سلوكا عاما والمسئول الذى يمارس الفساد يتخفى ويخفى عورته لا يجاهر بها ولا يجبر الآخرين على الفساد معه وإلا تعرضوا لبطشه وعقابه

ويا ويله ويا سواد ليله المسئول الفاسد الذى يطب ويقع . فصيحته ستكون بجلاجل وبالزفة السويسرى وهى غير الزفة الاسكندرانى.. ويعنى أن الصحافة والاذاعة والتليفزيون سوف تفتش وتنقب فى حياة المسئول حتى الجد السابع . وسوف تكتشف انك تهربت من أجرة الاتوبيس فى اليوم الفلانى . وانك زوغت من الضرائب فى السنة الفلانية وأن أموالك وعيشتك حرام.. وانك لا

تستحق العيش فى الجنة السويسرية

هناك لا يعرفون معلهش والقانون لا يعرف زينب وعندما يقع المسئول لا يقولون أصل سمعة الحكومة. وسمعة حزب الحكومة فسمعة الحكومة وحزبها ستكون ناصعة البياض. لو تخلصت من المسئول الحرامى. وسمعتها لن تكون كذلك إذا ماطلت وتمايعت وتهربت

وهكذا فعلوا فى سويسرا.. مع الوزيرة اليزابيث كوب وزيرة العدل والبوليس والتى كانت مرشحة لتولى منصب رئيس الجمهورية أو رئيس الاتحاد السويسرى

بالمناسبة رئيس الجمهورية هناك.. يختارونه من بين سبعة وزراء. يتم اختيارهم بالانتخاب الحر ويمكث الرئيس فى منصبه سنة واحدة فقط. بعدها يتولى زميله الرئاسة لمدة سنة أخرى . وهكذا يتولى الوزراء السبعة الرئاسة، كل منهم سنة واحدة وبعد السنوات السبع يتم انتخاب سبعة وزراء آخرين.. يتولى كل منهم الرئاسة لمدة سنة لا تقل أو تزيد .

كانت الوزيرة اليزابيث كوب . من الوزراء المشهود لهم بالحزم والحسم . بنت سمعتها ورصيدها السياسى.. عندما تبنت قضية تنقية المجتمع السويسرى من العمالة الأجنبية . ومن فلوس الأجانب المشبوهة وهى الفلوس القادمة من تجارة المخدرات والتى تتفنن بعض البنوك السويسرية فى تنظيفها وهى العمليات المشهورة بعمليات غسيل الأموال..

غسيل الأموال ببساطة يعنى تحويل الأموال من المصادر المشبوهة. إلى الحسابات المحترمة. بمعنى أن مستر «اكس» مثلا التاجر المعروف فى عالم المخدرات قد أعطانى ١٠٠ مليون دولار. فسأكون عشيما لو وضعتها فى حسابى مباشرة. لأن المستر «اكس» سيىء السمعة. وعلاقتى به تضر سمعتى ثم إنهم قد يقبضون على المستر «اكس» سيىء السمعة.. فيحرجرنى معه والحكاية ببساطة أن الـ ١٠٠ مليون دولار يمكن وضعها فى حساب باسم شخص آخر.. يتولى تحويلها إلى الشركة الفلانية التى تودعها كأرباح باسم شخص ثالث يشترى سندات من شركة أجنبية تقوم بايداع الأموال باسم شخص خامس أو سادس.. يتولى ايداع الأموال باسمى فى النهاية. تحت حساب أرباح أو وديعة.. أو مشاركة. أو أية تسمية

ولو سقط مستر «اكس» غدا أو بعد غد.. يظل اسمى نظيفا.. وبعيدا عن الفضيحة.. بفضل نظام الحسابات السرية.. وبفضل الأموال التى دارت دورة كاملة.. عبر أسماء سرية متعددة.. حتى تصب فى النهاية فى حسابى المحترم البعيد عن كل شبهة..

ومعظم أموال المخدرات فى جميع بلدان العالم.. تنتهى فى البنوك السويسرية.. بعد إعادة غسيلها.. و٩٠٪ من أرباح صفقات السلاح.. تصب فى بنوك سويسرا بعد تنقيتها وغسيلها.. وكل الرشاوى والعمولات وأموال السمسرة وتحويلات الحكام الفاسدين.. تذهب إلى بنوك سويسرا.. بعد غسيلها وتنظيفها.. ليصعب بعد ذلك معرفة المصدر الحقيقى لتلك الأموال.. وهى ليست ملايين بالمناسبة.. ولكنها مليارات المليارات.

وفى واحدة من أكثر قضايا الرأى العام فى سويسرا.. برز اسم زوج الوزيرة اليزابيث كوب.. وهو محام شهير.. تخصص فى عمليات غسيل أموال المخدرات والسلاح.. وتورط فى علاقات مشبوهة مع تجار من أمريكا اللاتينية ودول الشرق الأوسط.

فضيحة اليزابيث كوب الحقيقية.. أنها ومن خلال الأوراق والملفات أمامها كوزيرة للعدل والبوليس، قد حذرت زوجها.. الذى تنبه فى الوقت المناسب.. وتمكن من اخفاء أوراق ووثائق هامة.. وهى الأوراق التى تمكنت الصحافة من الكشف عنها.. ليقع زوج الوزيرة.. وتقع الوزيرة بتهمة تسريب المعلومات إلى زوجها المنحرف.

وتتسع الفضيحة.. عندما تكشف الصحافة.. أن ما كانت ترديه اليزابيث كوب حول الأموال النظيفة وغير النظيفة.. وتحويلات الأجانب المشبوهة.. كانت مجرد أقوال للاستهلاك المحلى.. وأنها مع زوجها متورطة تماما فى لعبة غسيل الأموال..

ووقفت الوزيرة مع زوجها أمام القضاء.. الذى حكم بسجن الزوج.. وغرامة الوزيرة مع عزلها من وظيفتها..

ومع أن اليزابيث كوب.. تتقاضى معاشا شهريا.. كوزيرة سابقة.. يبلغ ١٢ ألف فرنك.. يعنى ٣٠ ألف جنيه مصرى مع مطلع كل شهر.. إلا أن الصحافة طالبت

بحرمانها من المعاش فورا.. لسبب بسيط أنها لا تستحقه.. وأنها لا يجوز لها أن تتقاضى معاشا يقتطع من أموال دافعى الضرائب.. الذين ضحكت عليهم.. و.. لاتزال الفضيحة منظورة.. أمام محكمة الرأى العام.

دلالة القصة.. أنه لا أحد هناك فوق القانون.. حتى وزيرة العدل والبوليس.. ولا يستطيع مسئول واحد.. أن يتهرب بفهلوة.. وهو يردد كلاما مملا ومكررا عن الاستقرار وسمعة الحكومة.. والقلة الحاقدة والمؤامراتْ الأجنبية..

على العكس تماما.. فى مسائل الانحراف والسرقة والتهليب.. فإن الحكومة صاحية، وتملك اجراءات واجراءات لمحاسبة ومطاردة المنحرف والحرامى..

وهى حكومة تشجع الاستثمار وتحرص عليه.. وتعطى تسهيلات وتسهيلات للمستثمر الجاد.. أما غير الجاد والنصاب.. فمصيره هو مصير المحامى السويسرى الشهير تورنار..

وتورنار هذا محام شاطر.. اكتشف أن بنوك سويسرا هى القبلة والهدف.. لجميع أغنياء الدنيا. ماعدا أغنياء سويسرا.. والسبب أن تلك البنوك تعطى فائدة سنوية لاتزيد على ٤ أو ٥٪ للودائع بها..

وإذا كان أغنياء العالم يقصدون بنوك سويسرا.. فالهدف ليس هو الربح المحدود.. الهدف هو إيداع هذه الأموال فى بنوك مضمونة وحسابات سرية.. لا يمكن الكشف عنها.. ولا تفتح أسرارها لكل من هب ودب من الحكومات والأشخاص.. أما مسألة الربح والفائدة.. فغير ذات مضمون..

أما بالنسبة لمواطنى سويسرا.. فالحال يختلف.. وهم يودعون أموالهم فى البنوك لهدف واحد وحيد.. هو الحصول على ربح مناسب.. لتمويل رحلة.. أو شراء يخت.. أو تغيير السيارة.. ولهذا فإن مسألة الربح والفائدة مهمة جدا لهم..

وقد استغل «تورنار» هذه النقطة.. وعلى طريقة الريان والسعد.. أعلن عن تأسيس شركة لتوظيف الأموال.. تعطى أرباحا محترمة.. تزيد على ضعف ماتمنحه البنوك..

ولم يُضَيِّع «تورنار» وقته.. فأسس عددا من الشركات التى تعمل فى كل شىء.. فى الأغذية والسياحة والنقل.. وتقدم إلى «تورنار» المئات والألوف من المودعين.. وبالفعل.. وبنفس اسلوب وطريقة الريان.. أعطى أرباحا محترمة للمودعين..

لتتضاعف أعدادهم عدده.. وفجأة. اختفى «تورنار» عن سويسرا كلها.. ليكتشف المودعون انه باع لهم الترامواى.. وأنه فص ملح وذاب.

ولأن الحكومة السويسرية حكومة حازمة فى هذه المسألة.. فقد بحثت وتحرت.. وعرفت أن «تورنار» قد هرب بأموال المودعين إلى جزر الباهاما . ليعيش هناك عيشة الملوك.. مستغلا أن الباهاما لا تسلم المحرمين الفارين إليها. وأنه لا يمكن فى الظروف العادية تسليم المحامى الهارب.. أو تسليم أموال المودعين.

وتحركت الحكومة السويسرية.. ومارست ضغوطا علىّ المسئولين فى جزر الباهاما . وهددت باتخاذ اجراءات انتقامية فورية إن لم تتسلم المحامى مع أمواله فورا..

وبالفعل.. تخلت الباهاما عن المحامى «تورنار» ليعود مكبلا فى الحديد إلى سويسرا.. لتبدأ محاكمته هناك. بتهمة النصب والاحتيال وتهديد استقرار المؤسسة المالية السويسرية..

ومع أن «تورنار» قد رد معظم أموال المودعين وتعهد برد باقى الأموال فورا وبدون ابطاء. إلا أن ذلك لم يشفع له.. وتجرى الآن اجراءات محاكمته..

وتظهر مانشيتات الجرائد.. وعلى صدرها صورة «تورنار» ببدلة السجن . وتحتها عبارات «المسيو» تورنار المتهم بأنه حاول النصب على المودعين فى شركاته لتوظيف الأموال..

أى أن تورنار الحرامى.. لايزال «مسيو» فى عرف المجتمع رغم الفضيحة والتهمة الثابتة.. وحتى بعد سجنه.. سوف يصبح اسمه «المسيو» تورنار نزيل سجن كذا..

أى أن لقب «مسيو» كالجنسية لا يمكن سحبه سواء بالطبل البلدى.. أو المزمار السويسرى الشهير

وقد قررت والحال كذلك.. الاقامة فى سويسرا البلد عسى أن أتمتع بلقب «مسيو» إلى الأبد.. بدلا من العودة إلى مصر المحروسة.. لتنظر لى الهانم من فوق لتحت.. وتقول لى من طرف منقارها طلع لنا أنبوبة بوتاجاز فى الدور السابع.. و. بسرعة .

٩

النازية فى فراش الزوجية



لأنني أعشق المشاغبة.. وأهوى المسيرات السلمية.. وأحب شغل المظاهرات ومسائل اللبط.. فقد فرحت لكوني في سويسرا المحايدة الآمنة.. بعد أن اكتشفت منذ اليوم الأول لوصولي إليها.. أن هناك ثلاث مسيرات سلمية مختلفة.. تطوف شوارع جنيف.. والمصيبة أنها في حماية البوليس.. فهنا في سويسرا لا يعرفون الأمن المركزي.. ولا يستخدمون تكنولوجيا العصي الكهربائية.. ولا يجيدون التعامل مع القنابل المسيلة للدموع.

والمعارض مثلي عندما يسعد.. يرزقه الله بمظاهرتين.. فما بالك بثلاث مظاهرات في نفس التوقيت.. وفي حماية رجال الضبط والربط؟!

قررت الانضمام والمشاركة.. لكن المشكلة أن الفرنسية ليست لغتي الأولى أو الثانية.. أو حتى العاشرة.. ولأن معلوماتي عنها طشاش.. ومن باب العلم بالشيء.. فقد استعنت بالانجليزية وببعض الفهلوة.. لترجمة شعارات المظاهرات.. وفهمت أن أكبرها يطالب بالحرية للأجانب والملونين.. فانبسطت من الشعار.. وانشرح صدري.. واندمجت بسرعة.. فتسلقت كتف أقرب متظاهر.. وهتفت بحرقة كما فعلت من قبل في مظاهرات ١٨ و١٩ يناير ١٩٧٧:

بالطول.. بالعرض.. حانجيب ممدوح الأرض.. وممدوح هو ممدوح سالم طبعا رئيس الحكومة وقتها.. واندمجت أكثر فهتفت: سيد مرعي.. ياسيد بيه.. كيلو اللحمة بقى بجنيه!

فجأة.. التفت السادة المتظاهرون نحوي.. وكأنهم فوجئوا بوجودي.. فألقاني أحدهم على الأرض.. زرع بصل.. وتحولت بسرعة لهدف متحرك

لصفعاتهم ولكماتهم.. فانطلقت أجرى بعيدا.. وتحولت المسيرة السلمية الهادئة.. إلى سباق ماراثون محموم.. الكل فيه يجرى خلفى.. محاولا «لزقى على قفاى».. وعلى طريقة امسك حرامى.. هتفوا: امسك زنجى ملون.. فجريت بأقصى قوة.. وياروح ما بعدك روح.. والمظاهرة خلفى تقوى وتشتد.. فطفت بهم شوارع جنيف.. من أقصاها لأقصاها.. ثلاث دورات كاملة.. وأنا أجرى.. فشر سعيد عويطة أو كارل لويس.. حتى استطعت خداع الغاضبين.. والاختفاء عن الأنظار.

وأدركت أن هناك خطأ ما قد حدث.. أو لعل الحزب الوطنى قد أوصاهم بى خيرا.. أو لعلهم من أتباع ممدوح سالم.. أو مجانيب سيد مرعى.. لكنى اكتشفت بعد فوات الأوان.. أن شعار المسيرة لم يكن كما فهمت: الحرية للأجانب والملونين.. وإنما كان الشعار: التحرر من الأجانب والملونين.. وعرفت أن المتظاهرين من الجماعات العنصرية.. وأتباع النازية الجديدة.. الذين يطالبون صراحة بطرد الأجانب من بلادهم.. ومنهم أنا طبعا.. مع أننى لست زنجيا ملونا كما كانوا يهتفون.. إلا أننى لست حليوة بشعر أشقر وعيون زرقاء.. كما غالبية أهالى جنيف.. ومن هنا جاء الغضب.

غلطة صغيرة فى الترجمة من الفرنسية للعربية.. كادت أن تودى بحياتى.. وتحولنى من صحفى إلى مرحوم.. وتحيل عائلتى الصغيرة المستقرة.. إلى ورثة شرعيين.. يطوفون أبواب المجلس الحسبى.. ووزارة التأمين والمعاشات.

ولأن قليل البخت يلاقى العظم فى الكرشة.. فإن معدوم البخت يلاقى الجماعات العنصرية فى سويسرا.. فسويسرا التى لم تعرف الجماعات العنصرية طوال تاريخها.. تعرفت عليها هذا العام فقط.. عندما تشرفت بزيارتها.. فإذا بالبلاد المستقرة الآمنة.. تشتعل بالمظاهرات.. ضد العرب والأجانب والملونين.

وإذ بحضرتنا فجأة.. نصبح من المطاريد.. ونتحول لهدف متحرك

للجماعات الغشيمة التى تجتاح أوروبا منذ سنوات.. والتى حلت بسويسرا هذا العام.. لتثبت أن سويسرا ليست فقط قطعة من أوروبا.. بل وقلبها النابض أيضا.

فى انجلترا.. هناك جماعات الاسكين هيدز.. أو حليقو الرؤوس.. وهم يختلفون عن جماعات البانك.. أو ذوى الشعور الملونة.. فالبانك جماعات مسالمة.. وهم آخر بقايا الهيبز.. أو هم آخر طبعة من الهيبز.. يرفضون المجتمع نعم.. لكنه رفض سلبى مسالم.. فى إطار رفضهم للحضارة الحديثة.. ويفضلون العيش معا فى جماعات.. يسمعون الموسيقى.. ويدخنون المخدرات.. ويعيشون بطريقة بدائية..

أما الأسكين هيدز.. فهم جماعات نازية شرسة.. باسم الوطنية.. يهاجمون كل ما هو أجنبى.. ويؤمنون بأن انحسار الشمس عن الامبراطورية التى غابت عنها الشمس.. بسبب الأجانب.. وبالذات الهنود والعرب والملونين.. لهذا فإن تلك الجنسيات هى الهدف الحقيقى لتلك الجماعات.

صحيح أن انجلترا قد احتلت بلاد الهند ومعظم البلاد العربية والافريقية.. لكن ذلك كان فى الماضى.. ولهذا لا يجوز لتلك الجنسيات من وجهة نظر الجماعات العنصرية أن تعيد احتلال انجلترا.. وأن تتحكم فى قطاعات عديدة.. أهمها تجارة القطاعى.. ومحلات السوبر ماركت.. لهذا تمارس الجماعات العنصرية الارهاب ضد تلك الجنسيات لاجبارها على الجلاء.

آخر حوادث الاسكين هيدز.. وقعت فى قلب لندن.. عندما تراهن مجموعة من المراهقين على قتل أول أجنبى يمر من أمامهم.. وبالفعل وقفت أمامهم سيارة صغيرة.. نزل منها طبيب هندى.. فهاجمه العنصريون الصغار.. وطعنوه بالمطاوى.. وفزع الطبيب الهندى فهرب إلى سيارته وأحكم اغلاقها على نفسه..

ومع أن رجال الاسعاف قد انتقلوا إلى مكان الحادث إلا أنهم فشلوا فى اقناع الطبيب الهندى بفتح أبواب سيارته.. كان الرجل قد أصيب بصدمة

عصبية.. وهياج نفسي.. فرفض فتح أبواب السيارة.. لينزف داخلها.. وحتى الموت.

في فرنسا.. هناك جماعات الناسيونال فرنت.. أو الجبهة الوطنية.. بزعامة السياسي اليميني ماري لوبان.. الذي يرى أن خراب فرنسا والخمسة ملايين عاطل فيها.. بسبب المهاجرين الجزائريين والمغاربة.. لهذا تنصب حملات الناسيونال فرنت على افزاع المهاجرين في احيائهم.. لحملهم على العودة إلى بلادهم.

آخر تقاليع ماري لوبان.. هو المطالبة باكتتاب قومي.. لجمع مبلغ كبير من المال.. يكفي لدفع عشرة آلاف فرنك فرنسي.. لكل مهاجر مغربي أو جزائري.. مقابل تركه فرنسا.. والعودة لبلاده.. وإلى الأبد.

وبالطبع.. فإن المهاجرين من أبناء الجزائر والمغرب.. والذين تصل أعدادهم إلى ٣ ملايين مهاجر.. لا يكتفون فقط برفض الهجرة.. بل ويشنون حملات مضادة ضد جماعات الناسيونال فرنت. والنتيجة أن الشارع الفرنسي يعيش الفوضى.. بسبب حملات الجماعات العنصرية والحملات المضادة لهم.

في ألمانيا.. حيث الأحزاب النازية الجديدة.. يشنون الحملة ضد الأجانب.. وضد الأتراك بالذات.. بحجة أن المهاجرين الأتراك استنزفوا الاقتصاد الألماني.. وحولوا إلى بلادهم ٥٠ مليار دولار في السنوات العشر الماضية، وهو مبلغ ضخم.. يكفي لتشغيل العاطلين الذين ترتفع أرقامهم إلى ٦ ملايين عاطل.

وتتناسى الجماعات النازية.. أن العمالة التركية قد ساهمت في ازدهار الاقتصاد الألماني.. وأن تحويلاتهم هي مجرد جزء من أجورهم.. اقتطعوه ليساعدوا ذويهم في بلادهم الفقيرة.

الغريب في الأمر.. أن ألمانيا بالذات كانت تشجع الهجرة التركية إليها.. وقت كانت تحتاج إلى الأيدي العاملة.. لكن بانفجار الأزمة.. تناست ألمانيا

انفصال العمالة التركية عليها.. وبدأت الحملات الشرسة ضد المهاجرين الأتراك.

آخر حوادث الأحزاب النازية ضد المهاجرين الأتراك.. هو حادث قتل مهاجر تركى داخل أتوبيس نقل عام.. كان المهاجر التركى يتحدث بالتركية مع صديق تركى.. فهاجمته مجموعة من شباب الحزب النازى بالمطاوى.. قائلين له: إن عليك أن تتحدث الألمانية.. حتى لو كنت تتحدث إلى صديقك أو زوجتك.

ويدفع المهاجر التركى حياته ثمنا لحماقة واندفاع وغباء وعنصرية الأحزاب اليمينية النازية المتخلفة.

وفى سويسرا الآن.. تقع حوادث.. نسخة بالكربون.. لما يحدث فى انجلترا وفرنسا.. وألمانيا.. وفى كل يوم يشتد عود الجماعات النازية العنصرية.. وهو أمر طبيعى.. فى ظل الأزمة التى تعيشها سويسرا.. وهى الأزمة الطارئة التى تسببت فى ارتفاع أرقام البطالة الى ١٠٠ الف عاطل.. لأول مرة فى التاريخ السويسرى.

ومن الطبيعى أن مجتمعا كسويسرا.. يعانى الأزمة والبطالة والفساد.. أن يتجه نحو اليمين..يعنى يتجه نحو التقوقع.. والانكفاء على الذات.. والاهتمام بالنفس.. والاحساس بأن الأجانب يأخذون فرصة المواطنين فى الكسب والعمل.

وفى أيام الرواج الاقتصادى.. كانت قضية سويسرا وشغلها الشاغل.. هى اللاجئين والمهاجرين.. فتعداد سويسرا لا يزيد على ٥ ملايين نسمة.. ومن الطبيعى أنه مجتمع يحتاج إلى الأيدى العاملة.

وعندما انفجرت قبل سنوات الحرب الفيتنامية.. فتح السويسريون أراضيهم وأبوابهم أمام الهجرة الفيتنامية.. وعندما اندلعت الحرب الأهلية فى سيريلانكا استقبلوا المهاجرين من التاميل.. على اعتبار إنهم مهاجرون مسيحيون.. يعانون الاضطهاد فى سيريلانكا المسلمة.. وعندما عانى الأكراد

من التشتت بفعل الحروب الأهلية.. وجد المهاجرون الأكراد فى الأراضى السويسرية. وطنا ثانيا وملاذا لهم.

كانت الأبواب المفتوحة أمام المهاجرين.. لا تقتصر فقط على حق الاقامة.. بل فتحت الأبواب أمامهم للعمل والدراسة أيضا.. وتكفل المجتمع السويسرى بتوفير المساكن الرخيصة.. والاعانات الاجتماعية.. والمرتبات الشهرية.. حتى يتمكن اللاجىء الجديد من الاستقرار والاقامة والتكيف مع المجتمع الجديد.

لكن بانفجار الأزمة فى سويسرا.. بدأت الأصوات تطالب بابعاد الأجانب.. وبينما سويسرا تحتفل بأعياد تأسيس الاتحاد السويسرى.. ومرور ٧٠٠ سنة على انشاء الدولة.. فوجىء الرأى العام هناك.. بالحرائق تشتعل فى مساكن المهاجرين.

ومن الواضح من طريقة اشعال الحرائق وتوقيتها.. أن مشعلى الحرائق.. أرادوا توجيه انذار مهذب للمهاجرين. لأن الحرائق اشتعلت فى الصباح.. وقت كان المهاجرون فى مدارسهم أو أعمالهم.. ولم يقصد مشعلو الحرائق.. قتل أحد المهاجرين.. وإنما قصدوا توجيه رسالة وانذار شديد اللهجة.. بأن تلك الحرائق يمكن أن تتكرر فى أوقات أخرى.. ويمكن أن تصيب السكان من المهاجرين.

وكانت فضيحة.. لمجتمع يرفع شعارات حقوق الانسان.. ويتبنى مشاكل المهاجرين.. ويفتح لهم الأبواب والشبابيك.. من أجل الهجرة والاقامة والاستقرار.

ومن الواضح.. أنه باستمرار الأزمة.. فإن نغمة العداء للأجانب.. لم تقتصر على المهاجرين من فيتنام أو سيريلانكا.. أو الأكراد.. بل تعدتها إلى الأقارب والجيران.. بالتحديد الفرنسيون والطليان والألمان.

فسويسرا.. التى تعد أراضى مفتوحة.. أمام الجيران.. لم تعد كذلك.. وسوق العمالة السويسرية.. التى كانت تتسع لنصف مليون عامل فى البلدان

المجاورة لم تعد كذلك.

فى الماضى.. كان العامل الفرنسى أو الايطالى أو الألمانى.. يغادر منزله فى بلاده فى الصباح.. قاصدا الأراضى السويسرية.. للعمل والانتاج.. وبعد الظهر.. أو فى المساء.. يعود مرة أخرى إلى بلاده.. فى فرنسا مثلا.. وفى جيبه مرتبه السويسرى..

وهذا يعنى أن العامل الفرنسى.. يعيش ويأكل وينام فى فرنسا الرخيصة.. فى حين يعمل ويقبض راتبه من سويسرا الغنية.. تماما كالعامل المصرى.. الذى ينزح إلى القاهرة كل صباح من قليوب وبنها والزقازيق.. ليعمل فيها.. ثم يعود آخر النهار إلى بيته وأولاده وفي جيبه فلوس القاهرة.

كان العامل الفرنسى الذى يعمل فى سويسرا.. محظوظا بالفعل.. لأن مرتبه وحظه.. يبلغ أربعة أضعاف مرتب زميله الذى يعمل فى فرنسا.

الآن.. وفى ظل الأزمة.. توقف كل ذلك.

بدأوا بالمهاجرين من آسيا البعيدة.. وانتهوا بالمهاجرين من دول الجيرة القريبة.. ومع هذا تستمر الأزمة.. ويشتد نشاط الجماعات العنصرية.. التى ترى أن الحل هو المزيد من الانكفاء على الذات والمزيد من العزلة.. وتنقية المجتمع السويسرى.. من كل غريب ووافد.

الغريب فى الأمر.. انه مع اشتداد هذه الأزمة.. بدأت تظهر فى المجتمع السويسرى عادات وسلوكيات غريبة.. لم يعرفها من قبل.

بدأت قيم الواسطة.. وكروت التوصية تظهر فى المجتمع السويسرى.

فى الماضى.. كان العمل للأفضل والأقوى.. والأكثر قدرة على الانتاج والعطاء.

الآن.. أصبح العمل للاقارب والمحاسيب والأصدقاء.. وماعدا ذلك.. يظل خارج سوق العمل.. حيث البطالة والتسكع فى الشوارع صباحا وظهرا وعصرا وطوال الوقت.

على أن أغرب ما فى الأمر.. هو الدعوة التى تتبناها الآن الأحزاب

العنصرية الجديدة.. وتطالب بتنقية المجتمع السويسرى من الشوائب.

والشوائب التى يقصدونها.. هم المهاجرون القدامى.. الذين تجنسوا بالجنسية السويسرية.. وصاروا جزءا من النسيج السويسرى..

وفى جبال الألب مثلا.. حيث الحياة شاقة.. ويوم العمل يبدأ فى الحقول منذ الصباح الباكر.. وهو العمل الذى اضطر العديد من النساء والفتيات الصغيرات الهروب إلى مجتمع المدينة الأكثر رفاهية.

فى تلك الجبال.. وجد الرجال حلا عبقريا.. لحل أزمة هروب النساء الصغيرات والفتيات من العمل الشاق.. الحل هو الزواج من فتيات آسيويات.. ومن أمريكا اللاتينية.. ومن افريقيا.. وهو زواج «مصلحة» يضمن لهؤلاء الرجال حياة مستقرة.. ويضمن أيضا استمرار العمل الشاق فى الحقول. الآن تطالب الجماعات العنصرية.. بابعاد الزوجات الأجنبيات وإبعاد كل من تجنس بالجنسية السويسرية من الرجال.. وهى دعوة مرفوضة لكنها تقوى وتشتد.. فى ظل الأزمة الطاحنة.

وفى مواجهة الجماعات العنصرية.. ينظم الآن أنصار حقوق الانسان.. والمهاجرون الملونون.. مظاهرات مضادة ومسيرات سلمية.. تطالب بحق المجتمع.. فى العيش بسلام.. بعيدا عن منغصات ومطالب الجماعات اليمينية.. التى تريد أن تحتكر الأراضى السويسرية لصالحها فقط.

آخر تلك المسيرات.. نظمها الملونون.. واخترقت شوارع جنيف فى الاسبوع الماضى.. وهى ترفع شعارات.. دعونا نعيش معا فى سلام.. فالمستقبل مشرق أمامنا جميعا.. بصراحة.. أعجبنى الشعار.. فتحمست له كثيرا.. فانضممت للمسيرة.. فاندمجت.. فهتفت بالطول بالعرض.. حانجيب ممدوح الأرض. فجأة تحولت المسيرة السلمية.. إلى سباق للماراثون.. الكل فيه يجرى خلفى.. وهم يصرخون.. على طريقة امسك حرمى.. امسك جاسوس أبيض. وطفت بهم فى شوارع جنيف ثلاث دورات كاملة.. فشر كارل لويس.. أو سعيد عويطة!!

١٠

ودخلنا العصر الجليدى



وقف الخلق.. ينظرون جميعا.. كيف اتسلق جبال الألب وحدى.. وقد قلت فى نفسى.. أن الجميع يتزحلق.. فلماذا لا نتزحلق نحن أيضا.. بالعند فى الاخوة الكادحين ومحدودى الدخل.. من الأهل والأصحاب فى حر ورطوبة أغسطس القاهرة.. وبالعند فى صديقى محمد مستجير.. الذى قضى فى اوروبا عشرين سنة.. ومع هذا لم يصعد الجبال.. ولم يتزحلق مرة واحدة!!

وقد أخبرنى العارفون ببواطن الأمور.. أن الزحلقة لها أصول وقواعد صارمة.. فلابد وأن نصعد لقمة الجبل أولا.. لكى نتزحلق إلى السفح.. والصعود إلى الجبل مشكلة حقيقية.. لأن الجبل مغطى بالثلوج صيفا وشتاء.. ومحسوبكم ضعيف فى علم الثلج.. لا يعرف عنه سوى اننا نضعه فى الماء لنشرب الماء الساقع صيفا.. فى حين أن للتعامل مع الثلج والجليد.. قواعد وتجارب وأسرارا..

باختصار شديد.. اكتشفت اننى عديم الثقافة الثلجية.. لأننى انتمى ولا فخر.. للثقافة الرملية.. بدليل أن اشهر أشعارنا فى الفخر والحماسة.. عن الخيل والليل والبيداء وسنام الجمل.. فى حين أن أشعارهم الخالدة.. تدور حول الثلج والجليد الذى يعرفون منه عشرين اسما ونوعا.. وحول العاصفة والبرودة والصقيع.. والكلب «سان برنار».. أشهر أنواع الحيوانات.. وأكثرها فائدة للانسان.. ولولا أن الديانة عندهم تأتى فى المرحلة العاشرة من اهتماماتهم.. لعبدوا صاحبنا الكلب.. لأنهم يقيمون له التماثيل فعلا.. ويسمونه سان برنار.. يعنى القديس برنار.. لسبب بسيط.. هو أنه الكائن الوحيد القادر على اقتحام العواصف الثلجية. وتسلق الجبال الجليدية.. لانقاذ ضحايا الانهيارات وغرقى الثلج.. ومنكوبى الجليد.. والمحاصرين بفعل العواصف..

وهو قادر على الانقاذ.. بفضل حواس التشمم والتحسس والتصنت.. وهناك عشرات الحالات والأمثلة والحكايات.. لصاحبنا سان برنار.. ولهذا يحتفظ سكان الجبال ومتسلقوها بأنواع وأحجام مختلفة من سان برنار.. ويتقاسمون معها اللقمة والعيش والملح.. ويكتبون فيها أشعار الحب والغزل العفيف..

وقد وجدتها فرصة.. كمبعوث للثقافة الرملية.. للتعرف على الثقافة الجليدية.. وقد كنت أفكر في كتابة مخطوط ضخم.. عن أسباب تقدم الشعوب والأمم.. وربما كان الثلج هو أحد الأسباب.. بدليل أن معظم شعوب العالم الأول في عصرنا السعيد.. من أصحاب المناخ الجليدى والمزاج الثلجى.. بينما معظم شعوب العالم الثالث والرابع والخامس عشر.. من أصحاب المناخ الصحو.. الحار جاف صيفا والدفيء ممطر شتاء.

فقلت ربما كانت ثقافة الرمال.. وأشعار الخيل والليل والبيداء تعرفنى.. هى سبب تأخرنا.. وتقدمهم في المقابل..

وقد قررت التعامل مع المسألة عن قرب.. والتعرف على جبال الألب الشهيرة.. وبالمرة نقتحم موسوعة جينز للأرقام القياسية.. باعتبارى أول مصرى مغامر يتسلق جبال الألب.. بعد الصحفى الكبير محمود أبو الفتح والملك فاروق. فقررت أن أكون الضلع الثالث في المثلث الألبى.

وللصعود إلى الجبال.. حيث تبدأ رحلة الزحلقة.. عدة طرق.. قال لى الخبراء.. إن أسرعها وأسهلها هى ركوب التليفريك.. فتوكلت على الله.. وركبنا التلفريك قاصدين قمة الجبل.. حيث نبدأ الرحلة.. لاكتشاف المجهول.

داخل التليفريك.. اكتشفت اننى مجنون رسمى.. بشهادة العقلاء والمجانين.. فالتليفريك ما هو إلا علبة من الصفيح والألمونيوم.. بداخلها دكتين خشبيتين متقابلتين.. والعلبة معلقة بخطاف في سلك معدنى.. مشدود بين قمة الجبل وسفحه.. وتتحرك العلبة التى هى التليفريك.. صعودا وهبوطا بواسطة موتور كهربائى.. ويمكن للعلبة طبعا أن تسقط فى أى وقت.. أو أن يعطل الموتور.. أو أن تكون الأقدار قليلة الذوق.. فتدخلنى

موسوعة جينز للأرقام القياسية.. كأول واحد يموت من التلفريك الأول في حياته.

وتحسبا للظروف.. وزيادة في الاحتياط.. وحتى لا أترك الفرصة لتماحيك الأقدار.. جلست متخشبا داخل التلفريك.. أخشى أن أكح أو أن أعطس.. فأخل بالتوازن.. فتنقلب العلبة رأسا على عقب.. وعلى الدكة أمامي جلس شاب أحول.. ومعه بنت مثل لهطة القشطة.. يتباوسان ويتناغشان في بجاحة.. دون خوف أو كسوف أو مراعاة لوجود محسوبكم.. وقد جلست أحملق في بجاحتهما.. وأتفرج على السينما السكوب المجسمة.. وأتعجب للأقدار التي ساقت للولد مثل هذه السنيورة.. مع أنه يشبه أحمد نبيل.. في حين حجبت عني الأقدار واحدة مثلها.. مع أنني مسمسم وحليوة.. وقد فكرت من الغيظ والحسد.. أن أزغده في جنبه.. أو أن أقرصها من خدها الملظلظ.. لتتحشم ويكفان عن هذا العبث القاتل.. لولا أنني خفت أن أقوم بحركة عنيفة مفاجئة.. فينقلب التليفريك.. أو أن يكون الولد من النوع العصبي الحمش.. فيرميني من الدور العشرين..

ونتيجة للخوف والغيظ والحسد.. اتخذت قرارا تاريخيا.. بتأجيل دراستي في علم الأجناس.. وتأثير المناخ الثلجي على جنس البشر.. وقررت أن تكون رحلتي هي الأولى والأخيرة مع التليفريك.. و.. أخذت شنطة هدومي.. ونزلت في أول محطة.. فالتلفريك كالاتوبيس تماما.. له محطات في وسط الجبال.. قبل أن يواصل رحلة الصعود إلى القمة..

المحطة هي «فيربييه».. وهي مدينة صغيرة جدا.. محشورة في حضن الجبل الضخم.. شوارعها صاعدة هابطة صاعدة مرة أخرى.. والأمطار تهطل دوون توقف.. وبطريقة العرض المستمر.. ومع هذا فالسائحون بالكوم.. والحياة تبدو مستمرة ومستقرة.. والناس سعيدة ومبسوطة دون خوف من ارهاب أو تطرف مجنون.. والوقت صيفا.. والصيف عندهم شهران فقط تطلع فيهما الشمس المشرقة.. التي تغري بالصياعة والصعلكة.. رغم الأمطار المستمرة.. وهو أمر غريب.. أن تشرق الحياة في مثل هذه الرقعة المحدودة في حضن الجبل.. ما أن تمد بصرك.. حتى يحده

الجبل والثلوج.. ومع هذا هناك بيوت وحدائق ومتنزهات وسينمات ومطاعم وبيع وشراء.. وحركة وبركة.

ولو انني مسئول أو حاكم بأمره.. لأمرت فورا.. باقامة مصانع للثلوج في كل مكان في بلادنا.. لأنه من العجيب أن الثلج يساعد على النشاط لا العكس.. فيخرج البني آدم من بيته من النجمة.. ليبدأ رحلة الكفاح.. يكافح الثلوج المتراكمة طوال المساء أمام بيته تمنعه من الحركة.. ويكافح الثلوج المتراكمة على سيارته.. فيخترع جنزيرا يغطي اطار السيارة لتتمكن من السير فوق الجليد.. وهو يشبه جنزير الدبابة.. ثم يخترع كساحات لكسح الثلوج التي تمتد عشرة شهور في السنة.. ومع هذا لا يعرفون الكسل.فيذهبون للشغل من السابعة صباحا.. ينتجون ويزرعون ويحصدون ويعملون في المصانع والمتاجر..

في حين أن اخواننا أصحاب ثقافة الرمال.. الذين يتمتعون بالمناخ الصحو طوال شهور السنة.. والأرض عندهم منبسطة.. بلا جبال أو موانع أو عوائق طبيعية.. والشمس دافئة تساعد على الشغل والحركة.. والشتاء لطيف ناعم.. بلا عواصف أو صواعق أو رياح عاتية.. والبحر صاف رائق.. لا يعرف الغضب والثورة.. أو الأعاصير التي تقتلع كل أشكال الحياة.. ومع هذا فشعوب الرمل كسلانة.. نائمة في العسل.. تعمل على سطر.. وتترك عشرة سطور.. لو أمطرت السماء مرة.. لجلسنا في بيوتنا.. ننعى حظنا الذكر.. وقد تعطلت المواصلات العامة.. وغرقنا في بحور الطين المتحركة.. وهرب سائقو التاكسي الأنذال من الشغل.. بحجة المطر وجو المطر..

ومع أن الهدف من الرحلة هو الزحلقة.. فقد اكتشفت بسرعة.. انني لا أستطيع الزحلقة.. لسبب بسيط.. هو أن الثلوج الموجودة في هذا الوقت من السنة.. هشة جدا..بسبب حرارة الصيف.. وبسبب انخفاض مستوى المدينة بالنسبة للجبل.. وأن الزحلقة لا تتم سوى في المدن ذات الارتفاع الكبير.. وهو ما يتطلب مواصلة الرحلة بالتلفريك المرعب.. وقد فضلت أن أتمشى في الحدائق والغابات.. كما يفعل باقي السائحين..

ولكن أولاد الحلال.. عندما رأوا تلهفي على شغل الزحلقة.. نصحوني بالذهاب إلى صالات التزحلق المغطاة.. فالمتعة واحدة.. وهي صالات كبيرة مفروشة بالثلج الصناعي.. والحذاء هناك بالايجار.. وهو حذاء مخصوص.. له سن مدبب كالسكين.. لزوم الغرز في الثلج.. والزحلقة واقتحام دنيا الجليد..

وقد دخلنا التاريخ من وسع.. بعد أن سجلت اسمي في موسوعة جينز الشهيرة.. باعتباري أول لاعب في العالم. يسقط على أرض الملعب.. قبل أن تبدأ المباراة.. وكلما ساعدوه على الوقوف.. وقع من طوله.. وفشلت جميع محاولات بدء المباراة.. وهو انجاز يحسب لحسوبكم.. بعد أن فشل الحذاء ذو السكين المدبب في الاحتفاظ بتوازني.. وقد فشلت بدرجة امتياز.. مع أن العشرات من المتزحلقين والمتزحلقات.. يمارسون الزحلقة في سهولة ونعومة ويسر..

ويقدرة قادر.. تحولت إلى ساحر هندي.. ما أن ألمس واحدا من المتزحلقين لأستند عليه.. كي أحفظ توازني.. فآخذه ونقع سويا.. وفي مرة أمسكت بمجموعة تنطلق بجانبي.. وقد أمسك كل منهم في يد زميله أو ز ميلته.. فقلت في نفسي لو أنني أمسكت بيد واحد أو واحدة منهم.. لانطلقت أتزحلق بقوة الدفع الذاتي.. وببركة المجموعة.. لكن الساحر الهندي نجح في ايقاعهم دفعة واحدة.. وسط صيحات الاعجاب أو الاستنكار.. لا أدري.

باختصار.. تملكني الاحساس بانني السيد قشطة.. أو الفيل ابو زلومة.. يسبح في بحيرة البجع.. مع مجموعة من السابحات الفاتنات الرشيقات الجميلات.. يفسد عليهن الانسجام والمتعة.. ويعكر صفوهن.. ويقتحم ميدانا ليس ميدانه.. وقد أدركت أن الزحلقة في الصغر.. كالنقش على الحجر.. وكركوب الدراجات.. لا يجوز ولا يمكن عمليا تعلمها واتقانها في سن الترهل والشيخوخة..

وغادرت المكان غير مأسوف على شبابي.. بعد أقل من عشرين دقيقة.. وقعت خلالها أكثر من مائتي مرة.. وهو رقم قياسي عالمي.. ومع هذا لم أصب بكسر واحد في ذراع أو ساق.. وهي معجزة بكل المقاييس..

وتسببت في وقوع كل من اقترب من مجالي المغناطيسي.. وتسببت أيضا في حالة من الهرج والمرج والارتباك.. لم تشهدها الصالات المغطاة.. طوال تاريخها الحديث والقديم.

المهم أنني لم أكن أعرف أن السقوط والوقوع.. سيجعلاني بمثل هذه الشهرة.. وعلو المكانة.. لأنني وبعد أن غادرت المكان.. جلست في مقهى قريب.. التقط أنفاسي وأتحسس أطرافي.. وأحصي ما تبقى لي من فلوس.. بعد المغامرة العجيبة.. التي دفعت فيها الشيء الفلاني..

وبينما أنا منهمك في العد والحساب.. فإذا بأكثر من عشرين ولدا وبنتا يلوحون لي.. وبعضهم تقدم ليصافحني بحرارة.. والبعض طلب أخذ صورة تذكارية معي.. على أساس انني مبعوث الحضارة الرملية.. في زيارة لكوكب الثلج والجليد.. وقد قدرت أننا مادمنا في اجازة.. والاجازة تحب المرح واللهو والانطلاق.. فقد قررت القيام معهم ومصاحبتهم.. عسى أن أحظى بالصحبة الطيبة.. وعسى أن تعجب بي بنت مثل لهطة القشطة.. فتغير من تاريخ حياتي.. وتقنعني بطلب اللجوء السياسي.. لدى حضارة الثلج والجليد..

لكن الاخوة الشباب والشابات.. اتجهوا لمحطة التلفريك.. قاصدين قمة الجبل.. وقد فكرت جديا في الصعود معهم.. لولا انني اقسمت بأغلظ الأيمانات ألا أكرر التجربة.. فأخذت الاتوبيس قاصدا السفح وحدي..

في الاتوبيس.. جلس الشاب الأحول وبجواره البنت اللهلوبة.. يتباوسان ويتناغشان.. وعندما فكرت أن أزغده.. أو أن أقرصها من خدها.. نظر لي من فوق لتحت ومن تحت لفوق.. فاحتضنت شنطة هدومي.. وأغمضت عيني.. وأنا أنشد الخيل والليل.. والبيداء تعرفني.. و.. رحت في سبات عميق..!!

١١

اطفال اوروبا الشرقية للبيع



عليه العوض..

هربنا من المشاكل والزحام والعنف والتطرف.. وقطعنا تذكرة بالشيء الفلاني.. لنتفسح ونترحرح.. ونعاين على الطبيعة أوروبا الحضارة والشطارة.. والتقدم والتكنولوجيا.. والرفاهية والديمقراطية.. وحقوق الانسان.

فإذا بقليل البخت يلاقي العظم في الكرشة.. وإذا بأوروبا تقلب علينا المواجع.. وتجلد ضمائرنا وعقولنا.. وإذا بها مزبلة حقيقية.. وبرميل حقد أسود.. وتخلف وعنصرية.. وقرصنة وإهدار لآدمية الانسان.. علنا وعلى قارعة الطريق..

والدليل.. إن أحدث بضاعة الآن في أوروبا.. هي تجارة الأطفال.. وأقوى مافيا.. هي مافيا سرقة وبيع الأطفال في السوق السوداء.. وهي أقوى من مافيا المخدرات والجنس والتهريب.. وكافة شيء يغضب الله.

الحكاية حقيقية.. والأمثلة عديدة.. والحالات صارخة.. تعكس بوضوح.. خيبة المجتمع الأوروبي.. وأزمته العميقة.. بعد أن فشل في تجديد دمائه.. فاعتمد على القرصنة وسرقة الأطفال.. تحت شعار التبني.. بعد أن فشل في دفع أبنائه إلى الطريق الطبيعي. للحمل والولادة.

الأوروبي.. أو الأوروبية.. يهرب من الحمل والولادة.. بحجة أنهما يعطلان البني آدم عن المتعة.. ويتسببان في ترهل الجسم.. وتحمل المسئولية المبكرة..

رفاهية المجتمع الرأسمالي.. حولت الانسان إلى أناني بدرجة امتياز.. اهتمامه الأساسي بنفسه أولا.. وثانيا وعاشرا.. وهمه الحقيقي هو الفسح والاجازات والرحلات في بلاد الله.. وحصص الجمانيزيوم.. ودروس التنس

والجولف والأكل والشرب والسهر.. والرقص والحفلات.. والصياعة والصعلكة.

والنتيجة أن المجتمع الأوروبى.. يعانى من مشكلة حقيقية.. ومعدلات النمو وزيادة السكان لاتزيد على نصف فى المائة سنويا.. وهى معدلات متدهورة بالفعل.. وبالمناسبة فإن معدل النمو بين شعوب العالم الثالث يقترب من ٣,٨٪ سنويا..

بينما يعجز المجتمع عن تجديد دمائه.. فإن التكنولوجيا.. والتقدم الطبى.. قد لعبا دورا فى تعميق الأزمة.. فارتفع سن الانسان.. وتراجعت معدلات المرض والوفاة.. والبنى آدم الأوروبى يعيش الآن حتى سن التسعين فى المتوسط.. أو الثمانين إذا مات فى عز الشباب.. وسن الاحالة للمعاش للمرأة هى الخامسة والستون.. وللرجل حتى الثامنة والستين..

يضاعف من الأزمة.. أن هؤلاء العواجيز.. يشعرون بأنهم قد قاموا بواجبهم.. وأن من حقهم أن يستريحوا.. وأن يتمتعوا بمباهج الدنيا الفانية.. وبهذا فإنهم يقومون بالرحلات والسفر.. واهدار المال فيما لذ وطاب..

واكتشف الأوروبيون.. أن حوالى ٦٠٪ من المجتمع.. من أرباب المعاشات.. وحوالى ٢٠٪ من حجم المواطنين.. خارج سوق العمل.. لأنهم أطفال أو شباب صغير السن.. وهو ما يعنى أن ٢٠٪ من المجموع.. يتولى الصرف والانفاق على ٨٠٪ من حجم المجتمع..

ومع أن بلدان أوروبا المختلفة.. قد قامت بتقديم التسهيلات والامتيازات لأبنائها.. فى محاولة لتشجيع عمليات الانجاب.. إلا أن المعدلات تظل متواضعة بالفعل.. فى سويسرا.. يفتحون حسابات مجانية للمواليد الجدد.. ويقدمون إليهم مرتبات شهرية.. وفى فرنسا يصرفون لكل مولود جديد حوالى ألف فرنك.. وفى بريطانيا.. يتكفلون بمصروفات المستشفى والحمل والولادة..

ومع هذا لا يرحب الشاب أو الفتاة.. بمسألة الحمل والولادة.. ويفضلون عليها تبنى طفل جاهز.. يملأ عليهم البيت.. بعد أن يكونوا قد زهقوا من

الجرى والصرمحة.

المشكلة أن التبنى الرسمى.. يحتاج إلى أوراق وتوقيعات.. واجراءات ومخاطبات.. وشهادات من الأطباء.. والاخصائيين الاجتماعيين والنفسيين.. ويتحايل الأوروبى على ذلك.. بالسفر فى رحلة إلى كوريا أو البرازيل أو افريقيا.. ليعود من هناك بطفل يتم شراؤه من مكاتب متخصصة فى بيع الأطفال..

أسعار بيع الأطفال.. تحددها قوانين العرض والطلب.. وتتوقف على الشطارة والفصال.. وسن الطفل ولون بشرته.. ونوع جنسه.. وعلى أى حال تستطيع أن تجد المطلوب فيما بين ١٠ آلاف و٥٠ ألف دولار.. وأنت وشطارتك..

لكن المشكلة.. أن معظم هؤلاء الأطفال ملونون غالبا.. وهو عكس المطلوب فى بلاد تقدس التفرقة العنصرية.. وتعشق الجنس الأبيض.

وقد جاء انهيار دول الكتلة الشرقية.. بمثابة الحل الأمثل الذى يرضى جميع الأطراف.. ولم يعد الشاب أو الشابة مضطرا للسفر إلى كوريا أو البرازيل.. لتبنى طفل.. لأن المنظمات والهيئات والعصابات المحترفة.. تقوم بالدور كله.. وما على الأوروبى.. إلا أن يحدد المطلوب بالضبط.. ويصله الطفل حتى باب بيته.. من الباب للباب..

والحكاية أن أوروبا الشرقية.. لها باع طويل.. وخبرة عميقة.. فى مسأ[illegible] بيع الأطفال.. وفى الماضى.. وفى دولة مثل ألمانيا الشرقية مثلا.. وقب[illegible] انهيار سور برلين.. كانوا يأخذون أطفال الزعماء السياسيين المعارضي[illegible] ويضمونهم لعائلات ترغب فى تبنى الأطفال.. ومع أن هناك اتفاقا أخلاقيا ينص على عدم التكسب من عمليات التبنى.. إلا أنه كان هناك اتفاق ضمنى بمساعدة العائلات التى تتخلى عن أبنائها.. وبهذه الحجة.. كسبت رومانيا والمجر وبولندا الكثير.. من عمليات تجارة الأطفال.. التى كانت موردا هاما للعملات الحرة..

وعلى سبيل المثال.. تؤكد حكومة الدانمارك أنها انفقت - رسميا - ١,٦ مليون مارك ألمانى خلال فترة الثمانينات.. لشراء أطفال بلغ عددهم ١٢٠

طفلا من المجر.. بحجة التبني..

وفي رومانيا.. وعقب انهيار نظام شاوشيسكو.. اكتشف العالم من خلال التليفزيوني الروماني.. وجود منظمة خاصة.. لتنشئة الأطفال وإطعامهم.. بغرض بيعهم خارج البلاد.. وأن هؤلاء الأطفال قد انتزعوا من ذويهم بالقوة نتيجة للاختلافات السياسية..

وفي بولندا.. كانت الحكومة تطبق سياسة الباب المفتوح.. فيما يتعلق ببيع الأطفال.. وكانت تسمح لمن يرغب في بيع طفله.. بالتقدم رسميا.. لتتولى الحكومة عمليات الوساطة والسمسرة. والأجر والثواب مضمون طبعا..

المصيبة الحقيقية.. انه بعد انهيار الحكم الشيوعي.. وافتضاح عمليات بيع الأطفال.. لم تتوقف تلك العمليات.. ولكن النخاس فقط قد تغير.. لأن الحكومة لم تعد تتدخل فى عمليات البيع.. بحجة الخصخصة.. وتركت الباب مفتوحا.. أمام المؤسسات والمنظمات الخاصة..

ودخل المحامون الأمريكيون إلى الساحة.. وتولوا تأسيس مكاتب بيع الأطفال.. وأصبحت المسألة تجارية بحتة طبقا لقوانين العرض والطلب يقوم بها رجال أعمال ومحامون محترمون..

وأصبح البيع من خلال تلك المكاتب.. بيعا منظما.. وبالكتالوج.. يعنى تضع العائلة الراغبة في شراء طفل.. المواصفات المطلوبة.. طفل أشقر.. ذكر.. عمره ٣ سنوات.. عيونه خضراء.. أو زرقاء.. طويل القامة.. وهكذا.. وتتولى المكاتب المحترمة عمليات شحن الطفل المطلوب إلى أهله الجدد.. فى العنوان المحدد بالضبط..

أكثر من هذا.. تخصصت بعض المكاتب فى توريد الحوامل البولنديات للعديد من بلدان أوروبا.. لكي تمضى الأسابيع الأخيرة من الحمل.. في أحد المستشفيات القريبة من العائلة التي ترغب في التبني.. وتتكفل العائلة بمصروفات الطائرة ونفقات الاقامة بالمستشفى وأتعاب التوليد.. ثم تتسلم الطفل فور ولادته مع دفع ثمن الطفل للمكتب المحترم.. الذى يتولى محاسبة الأم بعد ذلك.

وقد كشفت الصحافة الأوروبية.. عن المئات من المنظمات والمكاتب الخاصة التي تتولى تربية الأطفال في ظروف سيئة جدا.. بغرض اطعامهم فقط. ثم بيعهم بعد ذلك.. وبعض هؤلاء الأطفال الذين تجاوزوا السن الطبيعية للتبني.. أو الذين يعانون الأمراض.. يتخلصون منهم.. بطرق غريبة.. منها القتل..

ونتيجة لذلك كله.. ظهرت مؤسسة أمريكية جديدة.. تضم محامين ورجال أعمال.. للاشراف على هذه التجارة.. بغرض تحاشي القتل.. وهذه المؤسسة تتعامل مع الأجانب الذين يرغبون في تبني طفل.. خاصة هؤلاء الذين انهكتهم اجراءات التبني الصارمة.. فتتولى تلك المؤسسة مهمة التخليص وانهاء الأوراق.. نظير عمولة محترمة..

وفي عام ١٩٩٠ أرسلت منظمات حقوق الأطفال.. وهي منظمات محترمة تابعة للأمم المتحدة.. بعثات لتقصي الحقائق في عدد من البلدان.. خاصة رومانيا.. إلا أن الحكومة الرومانية رفضت استقبال البعثة إلا أنها أصدرت في ٦ يوليو ١٩٩١ قانونا جديدا للتبني.. لا يسمح للتبني إلا بتصريح خاص من الحكومة.. وقد اضطرت مكاتب بيع الأطفال.. للاختفاء تحت الأرض.. والتعامل في السوق السوداء..

وفي عام ١٩٩٢ نشرت مجلة أمريكية محترمة هي [U.S News World Report] تحقيقا أكدت فيه.. انهيار سوق بيع الأطفال في كوريا.. وازدهار نفس السوق في روسيا.. التي دخلت الميدان وقامت بتصدير أعداد هائلة من أطفال روسيا ذوي البشرة البيضاء إلى العديد من بلدان العالم.. بدلا من أطفال كوريا ذوي البشرة الصفراء.

وفي ٥ مارس ٩٢.. خاطبت سفارة سويسرا في موسكو.. وزير العدل الروسي رسميا.. طالبة وضع قواعد محددة لتبني الأطفال.. بعد أن احتكرت ٨ شركات أمريكية عمليات بيع أطفال روسيا.. وهي الشركات التي تتقاضى عشرة آلاف دولار نظير الطفل الواحد.. وهو ما وجدته سويسرا مبلغا كبيرا.. وكانت تعرض ٥ آلاف دولار فقط للطفل.

وفى بداية عام ١٩٩٣ ناقش البرلمان السويدى.. ظاهرة سفر الحوامل البولنديات إلى السويد.. لوضع أطفالهن هناك.. بعد الاتفاق مع العائلات الجديدة التى ترغب فى الحصول على طفل.. وهو الاتفاق الذى تشرف عليه مكاتب أمريكية رسمية.. وأكد البرلمان السويدى.. أن الأسرة التى ترغب فى تبنى طفل تدفع للمكتب الأمريكى ٤٠ ألف دولار.. لكن المكتب يكتفى بدفع ألف دولار فقط للأم الحامل.. بالاضافة إلى مصروفات الولادة والسفر والانتقال..

وأكدت الصحافة السويدية أن ١٣١ طفلا بولنديا تم تبنيهم عام ١٩٩٢ منهم ٦ أطفال فقط.. تم تبنيهم بالطريق الطبيعى.. فى حين تم شراء ١٢٥ طفلا فى السوق السوداء..

وفى المجر.. كشفت الأرقام الرسمية.. عن أن ١٢٨ امرأة رومانية عبرت الحدود للمجر.. للولادة هناك مقابل ٣٠٠ دولار للطفل يتقاضونه من مكتب أمريكى للتبنى.. ويبيع المكتب الطفل بعد ذلك فى أوروبا الغربية مقابل ٢٠ ألف دولار للطفل الواحد..

المشكلة الحقيقية.. أنه لا توجد احصائيات واضحة لحجم تجارة وبيع الأطفال.. لكن المعلومات الكثيرة.. كافية جدا.. لندرك أن المشكلة خطيرة بالفعل.. وهى المشكلة التى تصدرت اجتماع منظمات حقوق الانسان فى لاهاى منذ شهرين.. بالتحديد فى شهر يوليو.. حيث طالبت المنظمات بضرورة وضع قوانين صارمة للتبنى.. كما طالبت أيضا الدول الغنية.. بضرورة مساعدة الدول الفقيرة.. التى تضطر لبيع أطفالها.. لكى تقف على قدميها..

ماذا أضيف..

أنا حزين قرفان.. وملعون أبو العلم والتكنولوجيا والحضارة والرفاهية والرخاء.

أنا والانتخابات
وليلى علوى

١٢



ولأننى أنتمى لجيل فراخ الجمعية . وطوابير السكر والزيت.. فقد فرحت بالطابور الطويل الممتد على الرصيف أمامى.. وقد أدركت أنه طابور الجمعية السويسرى.. يبيع السيمون فيميه.. والجبن الجرير بالأسعار المدعمة.. لغلابة أوروبا ولمحدودى الدخل هناك . ولأن الاحتياط واجب وحتى لا تفوتنى الفرصة. فقد حشرت نفسى فى الطابور. وقد أخذت وضع الاستعداد.. فشمرت عن أكمامى.. وخلعت نظارتى. ووضعت نيلى فى أسنانى.. انتظارا للحظة الاقتحام والهجوم وقد قدرت أن أى شىء أشتريه . هو مكسب حقيقى. مادامت الحكاية فيها طابور. وبغض النظر عن نوع البضاعة المهم أنها سويسرية مضمونة.. كالساعة من عيار ٢٤ قيراطا..

فى نهاية الصف.. وقفت أمام موظفة رقيقة. تصلح لأن تلعب باليه . أو أن تمثل فى السينما . وخصوصا أنها تشبه ليلى علوى أيام زمان.. قبل أن يفتح الله عليها.. فتاكل من وسع.. لتصبح مثل الحاجة فريال صالح واعترف أننى وقعت فى غرامها منذ اللحظة الأولى.. فسألتها باستعطاف حقيقى يليق بعاشق محروم.. أن تصرف لى فرخة أو اثنين كيلو دقيق مستورد .

وأكدت لها أننى متزوج. وأعول.. فأشارت إلى ورقة صغيرة أمامها مكتوبة بالفرنساوى.. فقلت لها أننى غريب وغشيم . والغريب أعمى. أو أحول على أقل تقدير فتولت سعادتها الشرح والتفهيم فقالت أن الطابور خاص بالانتخابات. رغم غياب اليفط ولافتات الدعاية والملصقات على الحوائط. التى يعرفونها هناك لأن الدعاية تتم عن طريق الاتصال الشخصى وخطابات البريد..

وقالت لى أن الاقبال على الانتخابات كبير هذه المرة.. لأن الناخبين يدلون برأيهم فى مسألة غاية فى الخطورة.. وتتعلق بتحديد مصير الجيش السويسرى.. بعدما طالب البعض بصريح العبارة.. بضرورة تسريحه والاستغناء عنه.. فأخذتنى الحماسة والوطنية.. وقد تذكرت محمد ثروت ببدلة الضابط. فوقفت على الكرسى . أهتف من صميم قلبى.. أحذرها من خطورة تلك الخطوة . لأن الأعداء قد يستغلون سذاجة

السويسريين . فيهجمون على الأوطان فى غفلة من الزمان . فتضيع سويسرا الجميلة . بسبب رومانسية أبنائها وطيبة قلبهم وقلة عقلهم. وغفلتهم وقد فرطوا فى ترابهم الوطنى . وشرفهم الذى يسال على جوانبه الدم

طمأنتنى أختنا ليلى علوى وقالت وهى تضحك من عبطى وخيبتى القوية.. وقالت أن حكاية الأعداء المتربصين على الحدود موضة قديمة.. وأن الحرب العسكرية قد راحت عليها.. بعد أن تنازلت الدول الكبرى عنها.. لدولنا فى العالم الثالث والرابع والخامس عشر. لسبب بسيط أن التطور التكنولوجى قد حسم المسألة.. ليصبح مجرد التفكير فى الحرب مغامرة كبرى.. ثم أن الحرب الباردة قد انتهت هى الأخرى.. وفى الماضى كان السويسريون يخافون من شبح قنابل الاتحاد السوفيتى النووية أما الآن.. فقد استقرت الأحوال وانضم الروس للمعسكر الغربى والحمد لله.

ثم أن العلاقات مع الجيران فى فرنسا وألمانيا وإيطاليا والنمسا.. أحسن من السمن على العسل.. ولا تنس أن سويسرا دولة محايدة أصلا . ليس لها فى الطور ولا الطحين.. ومن العبط والسذاجة والسفه الاحتفاظ بجيش يأكل ويشرب ويتسلح ويتدرب ويناور.. على حساب دافعى الضرائب .

قالت الأخت الرقيقة. وقد رأتنى أضرب كفا بكف. إن الوطنية الحقيقية ليست فى الاحتفاظ بجيش لا وظيفة له . لكن الوطنية هى العمل والاجتهاد وزيادة الانتاج.. ولهذا صارت سويسرا واحدة من أعلى معدلات الانتاج.. وأعلى مستويات المعيشة فى العالم.. ولأنهم ديمقراطيون جدا.. فقد فضلوا الاحتكام للرأى العام وصناديق الاقتراع . لمعرفة مستقبل الجيش.. خصوصا بعد أن تعددت الشكوى من أن الجيش لا فائدة منه.. وأنه عبء حقيقى. ويكفى أن الجنود والقادة . يحصلون على اجازات اسبوعية كباقى الموظفين . يتركون فيها الحدود مفتوحة ويستطيع الأعداء.. لو وجدوا.. الهجوم على البلاد يوم العطلة الأسبوعية. وعلى هذا . فمن الأجدى توفير فلوس التسليح ونفقات الدفاع.. التى لا لزوم لها..

قلت للأخت ليلى علوى أحاورها: لكننى ألاحظ غياب السيد اللواء مدير الأمن. والباشا الحكمدار مساعد المدير.. ولا وجود للسيد مساعد الوزير لشئون الانتخابات والكمبيوتر.. ولا يوجد أثر للاخوة عساكر الأمن المركزى . أو للسادة فتوات الانتخابات ومندوبى المرشحين.. و«الهتيفة» والعائلات والعصبيات.. والبوكس والعصى والشوم والتوتر والقلق..

فسألتنى بدهشة. وقد أدركت أننى متخلف عريق: وما دخل الأمن والبوليس فى

العملية الانتخابية . ألا تعرف أنها انتخابات مدنية. يشرف عليها المحافظ . ويختار لمساعدته مجموعة من الموظفين العاديين وربات البيوت . من ذوات السمعة الحسنة . اللاتي لم تصدر ضد واحدة منهن أحكام مخلة بالشرف. كالتهرب من الضرائب مثلا.. وأنا شخصيا أعمل كسكرتيرة في شركة كبيرة. وأقوم بالاشراف على الانتخابات في وقت فراغي.. والتي لابد أن تجرى في عطلة نهاية الاسبوع حتى لا يتعطل العمل وخطوط الانتاج

ثم مالت ليلى علوى ناحيتي برقة ودلال. ثم أضافت لا تنس أن البوليس شخصيا.. يواجه استفتاء هاما في الشهر القادم.. للاستغناء عن جزء كبير من خدماته وتقليص حجمه في الشارع.. بعد أن اكتشفنا أن رجال البوليس لا يعملون . ويتقاضون فقط مرتباتهم نظير جلوسهم في المكاتب.. بعد أن صار كل شيء يصل بالكمبيوتر.

فتحت فمي لأعبر عن دهشتي.. لكن صديقتي ليلى علوى أغلقته بيدها الرقيقة وهي تسألني: هل رأيت بالذمة عسكرى مرور واحدا في أية اشارة من اشارات المرور!! إن الاشارات عندنا تعمل اتوماتيكيا.. والمخالفات تحرر الكترونيا.. فلا حاجة لنا إذن بعسكرى المرور «أبو صفارة».

أما عن الجرائم العادية. فلحسن الحظ أن المواطن السويسرى.. يحمل داخله عسكرى بوليس متطوعا . يقوم بالابلاغ فورا عن أية جريمة تقع أمامه . ولهذا يستطيع نصف عدد البوليس الحالي. القيام بالأعباء كلها. دون اخلال بالأمن والأمان.

ازدادت دهشتي. فاقتربت من صديقتي وقد وثقت بها تماما . أشد على يدها . مؤكدا لها اعجابي بحكومتها الجريئة.. التي اختارت الطريق الانتخابي. لتنفيذ ما تريد.. فتستغنى عن خدمات الجيش.. وتقلص من قوات البوليس..

فنفخت ليلى علوى في الهواء.. وقد نفد صبرها . وسألتني بحدة: ومن قال لك أن الحكومة- هي التي لجأت إلى الانتخابات لتستفتي الرأى العام.. ألا تعرف أننا بلاد ديمقراطية حرة.. ومن حق كل عشرة آلاف مواطن.. أن يجمعوا توقيعاتهم حول قضية من القضايا ليقوم العمدة أو المحافظ.. بالدعوة إلى الانتخابات والاستفتاء . وأنه قد حدث أن تقدم عشرة آلاف مواطن بتوقيعاتهم يطلبون الغاء الجيش.. فتمت الدعوة للاستفتاء حول هذه القضية.. وتقدم عشرة آلاف مواطن آخر يقترحون تقليص أعداد البوليس.. وفي الشهر القادم سوف يذهب الناخبون للاقتراع حول هذا الاقتراح. وفي الشهر الماضي . ذهب المواطنون لصناديق الاقتراع للاستفتاء حول السماح لمزيد

من المهاجرين بالتجنس بالجنسية السويسرية.. وقبل شهور كان هناك استفتاء آخر حول الانضمام للوحدة الأوروبية.. التى تسعى الحكومة والشركات الكبرى للالتحاق بها.. لكن الناخبين يرفضون بشدة.

أقصد أن أقول أن الذهاب لصناديق الانتخاب حول القضايا العامة والخاصة يتم دوريا. بمجرد رغبة ١٠ آلاف مواطن وتوقيعهم على طلب بذلك.. أما بالنسبة لانتخاب رئيس الجمهورية فيتم بشكل مختلف.. كل سبع سنوات يذهب المواطنون لاختيار وانتخاب ٧ أشخاص ترشحهم الأحزاب السياسية المختلفة.. هؤلاء السبعة المرشحون يشكلون الحكومة فيما بينهم ويختارون واحداً منهم ليتولى منصب رئيس الجمهورية لمدة عام واحد فقط لكل منهم.. ثم يذهب الناخبون بعد انتهاء السنوات السبع.. لاختيار سبعة آخرين وهكذا..

انشكحت وانسجمت.. بحديث ليلى علوى الرقيقة.. فرأيت أن أعزمها على كوب شاى.. عسى أن تقرب الانتخابات ما بين قلبينا.. وفى المقهى القريب جلست ليلى علوى أمامى وديعة رقيقة متحمسة.. فقلت لها أن طريقتها فى الاشراف على الانتخابات مشجعة جدا . وأنها أفضل دعاية للديمقراطية.. وأنها أحسن واحدة تنتخب فى الدنيا. ومن المؤكد أنها ورثت ذلك عن الست والدتها التى تحمل صورتها فى ميدالية صغيرة . فقالت لى وهى تنفخ من الغيظ: غلط. لأننا كجنس ناعم لطيف حديثى العهد جداً بالانتخابات.. ولم تعرف السويسرية طريقها إلى صناديق الانتخاب سوى من عشرين سنة فقط. بالتحديد فى عام ١٩٧٣.. قبلها لم يكن مسموحا للمرأة بالتصويت.. على أساس أن تحديد المستقبل مقصور فقط على الرجال.. وحتى الآن وفى بعض المقاطعات السويسرية.. البالغ عددها ٢٤ مقاطعة.. من العيب أن تشارك المرأة فى عمليات التصويت.. رغم أنه من حقها قانونا.. خصوصا فى اقليم «ابينزيل» الذى يقع فى الجزء الألمانى من البلاد.. حيث يشارك الرجال فقط فى أغرب طريقة للانتخابات.. حيث يجتمع رجال المقاطعة البالغون الذين يعملون ويكسبون عيشهم.. أما العاطلون فيمتنعون.. ويجتمع الرجال فى ساحة عاصمة الاقليم.. بالقرب من مبنى البلدية.. حيث يصوتون بطريقة رفع الأيدى.. لأنهم يعتقدون أن تلك الطريقة هى أقرب الطرق الديمقراطية للتعبير عن الرأى.. وفى كل الأحوال.. سواء كانت الانتخابات برفع الأيدى.. أو عن طريق الاقتراع السرى.. فإن المواطنين العاديين هم الذين يشرفون على المراحل المختلفة للانتخابات.. وحتى اعلان النتائج.. ولا دخل للادارة العامة للانتخابات التابعة لوزارة الداخلية.. لأنهم لا يعرفون التدخل الحكومى فى العملية

الانتخابية.

قلت لصديقتي: وهذا يعنى أن الحكومة تنفذ فقط مطالب المواطنين العاديين.. وتخضع لاراداتهم الحرة الديمقراطية.. قالت بالضبط. حتى لو كانت مطالب للمواطنين العاديين ورغباتهم ضد مصلحتهم الحقيقية . قلت لها: مش فاهم . قالت هذا ما حدث بالضبط قبل ستة شهور.

كانت الحكومة قد دعت منذ ٦ شهور إلى زيادة الضرائب على الأغنياء والشركات الكبرى.. وذوى الدخول المحترمة.. وأصحاب العقارات الكبيرة.. ولكن لأن أية زيادات فى الضرائب تتطلب العودة إلى الجماهير فى استفتاء شعبي. فقد طرحت الحكومة مسألة زيادة الضرائب فى استفتاء عام.. وخاضت الأحزاب السياسية المختلفة معركة ضارية من أجل هذا الاستفتاء..

أحزاب اليمين.. وبمبادرة لئيمة . وقفت مع الجماهير العريضة . تطالبها برفض الزيادة فى الضرائب.. بحجة أن تلك الزيادة سوف تبدأ بالأغنياء ثم تزحف لمحدودى الدخل.. وأكدت الأحزاب اليمينية أنه من غير المعقول أن يتحمل الشعب ومحدودو الدخل أية زيادات فى الضرائب.. لأن المرتبات محدودة بالفعل . تكاد تكفى أقساط الفيلا.. والسيارة وحمام السباحة في حديقة الفيلا وفسحة أو فسحتين حول العالم فى السنة.. يا حرام..

بينما وقفت أحزاب اليسار تؤيد المشروع الحكومى . وتطالب الشعب بالموافقة على زيادة الضرائب.. لأن هذا المشروع يعفى أصحاب المعاشات والدخول المحدودة وصغار الموظفين من أية زيادة.. وأن الأغنياء فقط وكبار الموظفين.. وأصحاب الفنادق وحملة الأسهم فى البنوك.. سوف يتحملون الأعباء الجديدة..

المفاجأة.. أن رجل الشارع المحدود الدخل. قد صدق دعايات صحف اليمين . وذهب لصناديق الاقتراع ليرفض أية زيادة جديدة فى الضرائب.. سواء للأغنياء.. أو لمحدودى الدخل.. ولاحظ أنه يوجد عندهم فقراء!

ولأن المسألة ليست لعب عيال . ولأن الحكومة ملتزمة بالاستفتاء الشعبى.. فقد خضعت للارادة الجماهيرية.. وتخلت عن مشروعها بزيادة الضرائب. لكنها اضطرت لزيادة مواردها بطريقة أخرى . عن طريق زيادة أسعار المواصلات العامة والغاز والكهرباء . والنتيجة أن محدودى الدخل قد تحملوا الزيادات المقترحة. بدلا من أن يتحملها الأغنياء..

قالت لى صديقتي: إن سويسرا ليست الجنة الموعودة. كما يتصور البعض

وبالرغم من الديمقراطية التى ينعم بها المواطن هناك . فإن أحزاب اليمين هى المسيطرة.. والمتحكمة بفضل صحافتها وصوتها العالى. وأسلوبها الشعبى فى التخاطب مع الجماهير.. عكس أحزاب اليسار . التى تجيد الحوار مع المثقفين والفنانين وطلاب الجامعة.. دون أن تنجح فى التسلل لرجل الشارع أو ربات البيوت

والنتيجة أن الأغلبية دائما للأحزاب . التى تقود سويسرا باستمرار فى اتجاه اليمين.. ويكفى أن زيجلر ، أشهر مفكر سويسرى فى القرن العشرين. والذى كتب كتابه الشهير: «بنوك سويسرا تغسل أكثر بياضا».. والذى فضح فيه الدور الذى تلعبه البنوك فى لعبة غسيل أموال المخدرات.. والذى يقود حربا ضارية ضد ممارسات اليمين السويسرى يكفى أن زيجلر هذا. وهو صاحب الشعبية الطاغية.. قد خسر الانتخابات أكثر من مرة . وفشل فى أكثر من محاولة لدخول البرلمان.. قبل أن ينجح فى ذلك قبل شهور قليلة.. والسبب فى فشله المتواصل.. يعود لدعايات أحزب اليمين هذه.. وهى الدعايات التى بلغت حدا لم تعرفه سويسرا من قبل عندما أرسلت تلك الأحزاب خطابات للناخبين تقول لهم بوضوح: لا تنتخبوا زيجلر.. عدو سويسرا رقم واحد والذى تخصص فى تشويه سمعة بلاده.. بين الدول والشعوب .

انسجمت تماما . من حديث صديقتى التى تنافس ليلى علوى زمان . فى جمالها ورشاقتها ورقتها.. فطلبت لها «واحد لحمة».. لتكمل حديثها الرومانتيكى على ضوء الشموع وأنا أفكر جديا فى البقاء فى سويسرا.. لأكافح معها ضد أحزاب اليمين.. وأقود المظاهرات دفاعا عن صاحبنا زيجلر . خصوصا بعد أن أكدت لى أن هناك مشروع قانون جديدا سوف يطرح للاستفتاء.. يسمح للأجانب . الذين لهم حق العمل والاقامة.. بالمشاركة فى الانتخابات.. والانضمام للأحزاب السياسية ماداموا يدفعون الضرائب.. ويتمتعون بحقوق المواطنة

ولكن..

فاتورة المطعم. أقنعتنى فورا.. بالاقلاع والمغادرة.. بعد أن اكتشفت أن الآنسة ليلى علوى الرقيقة الجميلة . قد أكلت خلال نصف ساعة.. بمرتب محسوبكم فى ٣ شهور كاملة.. تصوروا..!!

١٣

عاطلون ولكن أثرياء



نيابة عن مواطنى العالم الثالث.. قررت أن أساهم بشىء لله.. أو بحسنة قليلة.. لتحسين أحوال العاطلين فى العالم الأول.. ولأن الأقربين أولى بالمعروف.. فقد قررت أن أساعد «روبير» صديقى السويسرى العاطل عن العمل.. ضمن ١٠٠ ألف يقفون فى طابور البطالة.. لأول مرة فى التاريخ السويسرى..

روبير بالمناسبة.. أشهر من نار على علم فى حديقة «باستيون» أو حديقة الشطرنج فى قلب جنيف..

هناك يلعبون الشطرنج على الواقف.. وبدلا من رقعة الشطرنج الممدودة على المائدة بين اللاعبين.. تتسع ساحة الشطرنج لتصبح أقرب لملعب صغير للكرة.. خططت بالعشرات من رقع الشطرنج.. وقد تحولت قطع الشطرنج الصغيرة.. إلى دمى بلاستيكية كبيرة.. ويقف اللاعب وسط الرقعة كقائد طابية.. وأمامه جيشه البلاستيكى.. يحركه ويتحرك معه فى الساحة الواسعة.. واللعب بالمجان طبعا.

فى حديقة الشطرنج عشرات اللاعبين والمتفرجين.. أشهرهم روبير.. رجل المواقف الصعبة.. يلعب نادرا ويتفرج معظم الوقت.. مهموم باستمرار يتحرك بعصبية.. وينتقل من رقعة لأخرى.. كخبير استراتيجى محترف.. يتابع المواقف.. ويراقب المعارك.. ويصحح الخطط.. ويتدخل فى الوقت المناسب. لحل المعضلات.. والافراج عن الأسرى.. وانقاذ من يحتاج لمساعدة.

وقد تدخل روبير فى كل مرة أتورط فيها باللعب مع بعض من توسمت فيهم الطيبة وحسن النية وتواضع المستوى.. فإذا بهم يحاصرون قواتى فى ركل من الرقعة.. وقبل أن أستسلم وأرفع الراية البيضاء.. يأتى

الفارس روبير فيراقب الموقف بسرعة.. ثم يشخط وينطر.. وكأنه صاحب الحديقة.. أو رئيس المجلس الأعلى للشطرنج فيها.. فيحرك قطعة يمينا.. ثم أخرى يسارا ثم يتولى إدارة المعركة لأفوز فى النهاية..

بصراحة.. غاظنى روبير بعصبيته.. واصراره على التدخل.. لأن تدخله يحرجنى ويكسفنى.. وقد تحريت عنه فعرفت أنه عاطل عن العمل منذ عامين كاملين.. بالتحديد منذ الغزو العراقى للكويت.. وأنه شبه متفرغ للعبة الشطرنج فى حديقة الباستيون.

وقد خمنت أنه مادام الرجل يتدخل دائما لانقاذى من الورطات التى أضع نفسى فيها.. فلابد أن يكون طالب احسان بطريقة مهذبة.. خاصة أن مظهره يوحى بذلك.. فالشورت المرقع لا يغيره.. والفانلة الـ تى شيرت تبدلت الوانها بفعل الشمس والمطر وعوامل التعرية.. والشبشب الزنوبة لا يفارق قدميه أبدا . وقدرت أنها طريقة سويسرية مبتكرة لطلب الاحسان من البهوات لاعبى الشطرنج.. وبدلا من أن يعصب عينيه.. ويكسر ذراعه.. ويدور بين المقاهى يهتف عشانا عليك يارب.. أو يسرح بأمشاط وفلايات.. فلابد أن الرجل قد اختار الشطرنج وسيلة للرزق.. وحجة للتكسب..

وبعد أن تعددت غزواتى لحديقة باستيون.. صعبت على أحوال روبير.. وقدرت أن عصبيته وخلقه الضيق.. لابد أنها راجعة للأحوال الصعبة التى يعيشها.. فقررت مساعدته بطريقة لائقة. فبدأت فى التقرب إليه.. لتبدو الحسنة منطقية.

وتجاوب الرجل بسرعة.. كلمة.. فسيجارة.. ففنجان قهوة.. فعزومة على ساندويتش طعمية محترم.. كلف ميزانيتى المتواضعة ٦ فرنكات.. يعنى ١٥ جنيها مصريا بالتمام والكمال..

والطعمية بالمناسبة.. تباع فى قلب جنيف الأرستقراطية.. بدأها واحد مصرى.. ثم انتشرت بعد أن قلده واحد تركى.. ثم دخل الاسرائيلى إلى الساحة.. لتنتشر محلات الطعمية.. التى يسمونها الهامبورجر المصرى.. أو الفلافل..

وانتهت حكاية العزائم مع روبير.. على مائدة فى مطعم شيك على بحيرة

«الليمان» السويسرية الشهيرة.. بعد أن قرر الرجل أن يرد على عزوماتى التى تكررت.. بعزومة على انتركوت محترم.. دفع فيها ٦٠ فرنكا كاملة.. ليثبت أن الخير يبقى لأصحابه.. وأن الحسنة بعشرة أمثالها فعلا.. وليثبت أيضا أنه عاطل نعم.. لكنه ليس متسولا كما تصورت..

وصار الرجل صديقى.. واكتشفت أنه ليس عصبيا ولا يحزنون.. كل ما فى الأمر.. انه كان مغتاظا منى.. لعدة أسباب منها اننى لا أصلح للعبة الشطرنج التى تحتاج إلى التركيز.. ولا أكمل الخطط التى أبدأ بها الدور.. فأبدأ بداية طيبة.. ثم أنهار بسرعة بعد خمس نقلات.

على أن أهم ما كان يستفز روبير من حضرتنا.. هو اصرارى على الذهاب للحديقة بالملابس الكاملة.. البنطلون والقميص والجزمة والشراب.. مع أنها حديقة.. وما يصلح للشغل والحفل والعشاء.. لا يجوز ارتداؤه فى الحديقة.. التى تحب الشورت والـ تى شيرت والشبشب الزنوبة.

صار روبير العاطل صديقى.. واكتشفت أن الشطرنج ليست هوايته الوحيدة.. بل إنه يهوى الكلام أيضا.. نافورة كلام مفتوحة فشر عمنا محمود السعدنى.. يتكلم فى كل شىء.. فى الشطرنج والطقس.. والموضة.. والسياسة.. والتدبير المنزلى.. والرياضة.. والنساء.. والاقتصاد أيضا.. بحكم أنه درس اقتصادا وإدارة أعمال.. وتخرج فى جامعة البولى تكنيك فى لوزان.. قبل أن يعمل فى شركة نستلة للألبان لمدة ١٥ سنة.. وصل خلالها إلى منصب المدير.. له بيت وزوجة وطفلان.. وقط سيامى وكلب صغير.. وسيارة يستخدمها أحيانا.. وشاليه فى جبال الألب.. ويعيش فى مستوى اجتماعى لابأس به.. رغم الأزمة التى لا يعيشها وحده.. بل يعيشها المجتمع هناك.

وعندما اندلعت أزمة الكويت.. عرف روبير طعم البطالة.. قبلها لم تكن هناك بطالة فى سويسرا.. بالمعنى المعروف للكلمة.. كانت البطالة مؤقتة.. ولأسباب مزاجية.. وليست لأسباب اقتصادية.. يعنى «أخينا» المتعطل.. يرفض العمل فى المشروع الفلانى.. أو المكان العلانى.. ويفضل أن يبقى متعطلا.. إلى أن يجد العمل المناسب الذى يحلم بأدائه..

كانت البطالة موسمية.. لا تزيد على أسابيع قليلة.. يتبطر فيها صاحبنا على النعمة.. إلى أن يجد العمل المناسب.. فى رحلة البحث عن الذات والهوية..

ولكن.. باندلاع حرب الخليج.. وانحسار التحويلات القادمة من الشرق الأوسط.. لتصب في بحر البنوك السويسرية.. بل وسحب جزء محترم من الودائع الأصلية.. للصرف على الحرب وتحرير الكويت.. ثم إزالة آثار العدوان.. بالاضافة إلى توقف السياحة العربية.. التى تشكل عوائدها نسبة محترمة من الدخل القومي.. اضطرت البنوك والشركات الكبرى إلى الانكماش.. والانكماش يعنى تخفيض الانفاق.. يعنى بالبلدى الاستغناء عن جزء من العمالة.

فى البداية.. استغنوا عن خدمات ٥٪ من العاملين.. منهم صديقنا روبير . قالوا له معلهش.. أزمة وتفوت.. وانتهت الأزمة بعودة الكويت.. ولم يعد العاملون إلى أعمالهم. فقالوا لهم: الوحدة الأوروبية التى لا نشارك فيها . فرضت علينا المزيد من الانكماش.. ولهذا استغنوا عن خدمات ٥٪ اضافية من العاملين.. وفى العام الماضى استغنوا عن خدمات ٥٪ أخرى والسبب هو الوفاق الدولى.. والنظام العالمى الجديد.. وفك دول المعسكر الاشتراكى.. التى أوقفت - كما يقولون - تحويلات زعمائها إلى بنوك سويسرا.. ليزداد الطين بلة . ولتزداد الأزمة استفحالا..

ما يغيظ روبير حقا.. هو أن الشركة التى كان يعمل بها - شركة نستلة - هى شركة احتكارية عملاقة بحق.. ميزانيتها ٤٠ مليار دولار.. يعنى أكثر من ميزانية دولة محترمة.. وهى رغم الأزمات التى فرضت عليها الانكماش داخل سويسرا.. سعت للتوسع خارجها.. فاشترت شركات قهوة وألبان ومياه معدنية فى فرنسا وايطاليا.. حتى تضمن لها موطىء قدم عندما تتحقق الوحدة الأوروبية.. التى ترفض سويسرا الدولة المشاركة فيها.. لكن شركة نستلة تشارك وتستفيد من تلك الوحدة.. على اعتبار أنها شركة أوروبية لها فروع فى فرنسا وايطاليا..

والبطالة التى يعانى منها روبير مع ١٠٠ ألف عاطل.. من العمالة الفنية

القاهرة.. من خريجى الجامعات.. ومديرى البنوك.. وفنانى المسرح والسينما.. وخبراء البورصة.. والكوادر الادارية.. وهذه البطالة لا تعنى مجرد التوقف عن العمل.. لكنها تعنى فى حقيقة الأمر موتا وخراب ديار.

فالتعطل عن العمل.. يعنى التوقف عن دفع الأقساط.. وفى سويسرا كل شيء بالتقسيط المريح.. الشقة.. العفش.. السيارة.. الأجهزة المنزلية.. حتى النظارة الطبية ومصروفات العلاج.

ولهذا فإن البطالة لا تؤدى فقط إلى افلاس الأفراد.. وإنما تؤدى أيضا لافلاس الشركات والمؤسسات الصناعية والتجارية.. وبالتالى تؤدى لافلاس البنوك.. عصب الحياة الاقتصادية فى سويسرا.

ثم إن البطالة هناك.. مشكلة نفسية.. فالسويسرى يعشق العمل ويقدسه.. ويؤمن بأن العمل حق وواجب.. رغم أنه لا يعرف الأغانى الوطنية.. ولا توجد عندهم أغنية اسمها سويسرا هى أمى.. «رونها» هو دمى!!

وكلمة «رونها» تعود إلى نهر الرون.. أشهر الأنهار السويسرية.. ويشبه ترعة مصرية متواضعة.. ومع هذا يقدسونه ويحترمونه بالسلوك والعادات.. وليس بالأغانى والخطب.

وسويسرا هى الدولة الأوروبية الوحيدة.. التى يعمل فيها العامل ٤٢ ساعة اسبوعيا.. وترفض نقابات العمال فيها تخفيض ساعات العمل إلى ٤٠ ساعة كما فى فرنسا.. أو ٣٥ ساعة كما فى انجلترا..

ولأنهم يحبون العمل.. فالبطالة شيء عارض.. غير طبيعى.. يحتاج العرض على الطبيب النفسى.. ليؤكد للمتعطل أنه كويس ويخير.. وأن التعطل عن العمل.. لأسباب خارجة عن ارادته.. ولأسباب كونية لا تتعلق بكفاءته الشخصية..

وإمعانا فى حسن النوايا.. تأمر الحكومة للمتعطل باعانة مناسبة.. تحفظ له مستواه الاجتماعى.. فى واحد من أكثر المجتمعات رفاهية فى العالم.

ومع أن سويسرا مجتمع رأسمالى عريق.. يطبق قوانين الرأسمالية

الصارمة.. إلا أنه في مواجهة الأزمة.. أكثر اشتراكية من بعض المجتمعات اياها.. التى ترفع الشعارات والرايات عالية خفاقة ضد الامبريالية والاحتكار.. وهى تحتكر وتحتقر وتتحكم وتعذب فى العامل والموظف والأرملة وأصحاب المعاشات.. فيضطر الواحد منهم.. وحتى يحتفظ بالحدود الدنيا للمعيشة اللائقة.. أن يعمل فى الصبح مهندسا.. وبعد الظهر نجارا.. أو نقاشا أو سائق تاكسى.. أو يعطى دروسا خصوصية.

المجتمع الرأسمالى.. وللأسف الشديد.. فى حالة التوقف عن العمل.. يعطيك فورا.. اعانة لتواجه متطلبات الحياة.. وهى اعانة تختلف من دولة لأخرى.. فى انجلترا يعطونك اعانة تكفى لاطعامك عيش وهامبورجر. وهى مثل العيش والطعمية فى مجتمعاتنا.. وفى فرنسا يعطونك اعانة تكفى لأكل العيش الحاف.. أو عيش وسجق.. يعنى اللحم الصريح ممنوع.

أما فى سويسرا.. فالحال يختلف.. لا تنسى الحكومة أن السويسرى يعشق العمل.. وأن تعطله لأسباب خارجة عن ارادته.. لهذا فمقامه محفوظ.. واعانة البطالة تقترب من قيمة المرتب.. بالتحديد ٧٥٪ من المرتب.. وهى اعانة تكفى لدفع جميع الأقساط. أقساط البيت والعفش والسيارة.. وشراء لحم محترم من عند الجزار.. وبنزين للسيارة والذهاب للسينما والحلاق.. وشراء معلبات للكلب وجرس للقطة.. وتكفى أيضا لتمويل رحلة نهاية الاسبوع فى شاليه الجبل.. حيث التزحلق على الجليد..

بالمناسبة.. الحد الأدنى للمرتب فى سويسرا.. حوالى ٣ آلاف فرنك.. يعنى بالبلدى الصريح.. سبعة آلاف وخمسمائة جنيه مصرى فى أول كل شهر.

ومع أن عدد العاطلين فى سويسرا.. لا يزيد على ١٠٠ الف متعطل.. لكنها نسبة مرتفعة بالفعل.. صحيح أنها ليست مثل فرنسا حيث عدد العاطلين ٥ ملايين.. أو بريطانيا حيث يقفز عددهم إلى ٤ ملايين.. أو المانيا حيث تسجل أرقام البطالة ٦ ملايين.. ولكن لو عرفنا أن مجموع سكان سويسرا لا يزيد على ٥ ملايين نسمة.. نصفهم بالضبط من أرباب

المعاشات.. يعنى سنهم فوق الخامسة والستين وهذه مشكلة أخرى بالاضافة إلى الأطفال والتلاميذ وطلاب الجامعات وربات البيوت.

ويتوقعون فى سويسرا.. ألا تستمر الأزمة طويلا.. ويؤكدون أنها فى طريقها للانحسار.. فالوحدة الأوروبية التى تدق الأبواب.. والتى فرضت الانكماش على الاقتصاد السويسرى.. لن تلبث أن تدعم هذا الاقتصاد.. فسويسرا بموقعها المتوسط من أوروبا.. مثل الواحة والجنة والحلم المنشود.. ولن تستطيع أوروبا الموحدة تجاهلها طويلا.. ثم إن بنوكها لاتزال تجتذب الأموال.. سواء الأموال النظيفة.. أو القذرة.. ذلك أن تلك البنوك تجيد جيدا.. لعبة غسيل الأموال.. بفضل الحسابات السرية.. ولعبة انتقال الأموال من حساب لآخر.. حتى تخرج فى النهاية نظيفة ناصعة.

وكأنها غسلت بمسحوق من مساحيق الغسيل.. التى تخصص تليفزيوننا المحترم فى الاعلان عنها والترويج لها.. ببناته الراقصات اللهلوبات.

المهم.. أن سويسرا التى عرفت مؤخرا طعم البطالة.. وعرفت معنى البقاء فى البيوت نهارا.. والتسكع فى الحدائق العامة والمقاهى والبارات ظهرا وعصرا وكل الوقت.. لم تعرف بعد ظاهرة التسول والمتسولين..

الشحاذ فى سويسرا.. أجنبى دائما.. وتلميذ فى الجامعة غالبا.. وهو يتسول بالفن والموسيقى.. يفرش ألوانه وطباشيره وأصباغه على الرصيف.. ويشخبط بها على الأرض لوحات فنية متواضعة أو رائعة.. وقبعته بجواره.. وأنت وذوقك.. تحكم على مستواه الفنى والاجتماعى.. وتترجم هذا الحكم إلى قروش قليلة.. وأنت حر.. تضع فى القبعة خمسة سنتيمات.. يعنى خمسة قروش.. أو تضع فيها فرنكا أو عشرة فرنكات.. أنت حر.

أو أن يصعد «اخونا» المتسول الفنان.. إلى الترام.. أو الترولى باس المنتشر جدا فى شوارع سويسرا.. وفى يده جيتاره أو زمارته.. يعزف لك

مقطوعة من تأليفه.. أو من تأليف المرحوم بيتهوفن.. وأنت أيضا حر.. تعطيه أو تدير له ظهرك.. وسواء أعطيت أو طنشت.. سيقول لك بأدب «مرسى» يعنى شكرا فى كل الأحوال.

ونتيجة لذلك.. يشهد ترام جنيف.. أو شوارع وميادين سويسرا.. فرقا موسيقية عديدة.. من أوروبا وأمريكا اللاتينية.. ومن اليابان والهند ومن افريقيا.. كل فرقة تقدم لك فنونها بالمجان.. أو بقروش زهيدة.. وحسب امكاناتك.

وقد تمنيت لو رأيت شابا مصريا.. أو فرقة موسيقية من ثلاثة أفراد.. يعزفون موسيقى السمسمية.. أو أغانى الأفراح الفلكورية.. وأضمن لهذا الشاب أو لتلك الفرقة.. أن يحقق ثرورة لا بأس بها.. والمكسب بالنصف.

المهم. أن صديقنا روبير.. قابلنى فى الاسبوع الماضى.. فرحا متهللا.. وكأنه فتح عكا.. قال لى خلاص.. أخذت اجازة من البطالة.. وأفكر فى زيارتكم فى مصر.

قلت له: اجازة من البطالة.. يعنى اشتغلت.. ألف مبروك.

قال لى: لا طبعا.. الحكاية أننا كعاطلين عن العمل.. نضطر للذهاب مرة واحدة اسبوعيا لمكتب العمل.. لنختم بطاقة التعطل التى بموجبها نقبض تعويضات البطالة.. ولكننا شكونا.. قلنا إن من حقنا كعاطلين محترمين.. أن نأخذ اجازة.. نتوقف فيها عن ختم البطاقات.. لنستجم قليلا.. وقد فكرت وفكرت.. وقررت أن أحضر إليكم فى مصر.. فى اجازة لمدة ثلاثة أسابيع.. وأريدك أن تنظم لى رحلة مناسبة..

قبل أن أذهب.. قال لى روبير.. لا تنس من فضلك.. اننى عاطل نعم.. لكنى لست فقيرا.. وأفضل النوم فى فنادق خمسة نجوم.. والأكل فى المحلات المحترمة.. أما حكاية الفلافل والهامبورجر المصرى.. فاسمح لى..

ولا تنس أن تكتب لى بجميع التفاصيل..

الحياة بالتقسيط المريح

١٤



وهكذا.. وكما في الأفلام العربي، مع اقتراب كلمة النهاية.. وقبل يومين فقط من مغادرتي للأراضي السويسرية.. وقعت في غرامي حسناء كما في الكتالوج.. بيضاء كاللبن الحليب.. طول وجمال ونضارة وشطارة وشياكة وشباب ومرح وانطلاق.. ولا أخفي أن هذا الحب قد أشعل ثورة الشك في نفسي، ومن المؤكد أن هناك أسبابا عميقة وراء هذا الوجد والهيام.. وربما تكون حبيبة القلب من هواة جمع التحف والأنتيكات.. أو من المهتمين بغرائب الكائنات والمخلوقات.. أو يجوز أن تكون أمها في «ساعة تجلي».. قد صبت عليها لعناتها.. فتمنت لها سوء المصير.. أو ربما قد تكون قد وقعت في غرامي.. تعبيرا عن رغبتها في الخلاص من الدنيا الفانية.. وكنوع من الرفض العنيف.. والانتحار المعنوي.. خصوصا أن حالات الانتحار الواقعي عندهم مرتفعة جدا.

ورغم التقدم والتكنولوجيا والحضارة والثروة.. ورغم أنهم يعيشون في أغنى بلد في العالم.. ولا يعرفون الفقر الذي نعايشه وتعرفه معظم بلدان العالم.. حتى في أمريكا نفسها.. إلا أنهم ينتحرون من الزهق ومن التخمة.. ومن فرط الانبساط.. لا فارق بين بنت وولد.. شاب وعجوز..

إلا أن صديقتي الجميلة.. أخرجتني من تساؤلاتي الفلسفية العميقة.. بتساؤل أعمق.. عندما سألتني عن مقدار ثروتي بالضبط.. وعن تفاصيل تحويشة العمر.. وكم أملك بالمليم.. ولعب الفأر في «عبي».. فربما تكون «داخلة» على طمع.. والنفس طبعا امارة بالسوء.. فربما تصورت أنني مليونير من الاخوة العرب.. الذين استقروا في

سويسرا.. ويسكنون قصور الألب ويشكلون جالية كبيرة.. تلعب بالفلوس وغير الفلوس..

ولأن ملامحي وتصرفاتي لا توحي طبعا بأنني مليونير عريق.. فربما تصورت حبيبة القلب.. انني أحد الأغنياء الجدد.. الذي أثروا من تجارة المخدرات.. أو توكيلات البترول.. وهم كثيرون بالمناسبة في سويسرا.. ومنهم مصريون بالكوم.. يفضلون البقاء بجوار أموالهم.. بعد غسلها وايداعها في البنوك ذات الحسابات السرية.. التي لا تسمح للغرباء بالاطلاع عليها..

أعرف مليونيرا مصريا.. بدأ قبل سنوات قليلة مشوار النجاح.. عندما كان تلميذا يدرس الفندقة في مدينة لوزان.. وبالصدفة تعرف على مسئول بترولي مصري كبير.. وتوثقت الصلة.. فأصبح طالب الفندقة وكيلا لسعادة البيه المسئول.. في العديد من الصفقات تحت الترابيزة.. وباسم الطالب الصغير.. عقد المسئول الكبير عددا من الصفقات غير النفطية.. وتخصص بعد فترة في بيع البترول المصري في السوق السوداء لجنوب افريقيا.. وبأسعار مضاعفة.. لأن جنوب افريقيا وقتها كانت تواجه أحكام المقاطعة الاقتصادية من معظم دول العالم.. وبعد سنوات لعبت البلية.. فتحول الطالب إلى مليونير.. ثم أصبح شريكا لحضرة المسئول الذي أعفي بعد ذلك من منصبه.

وربما تصورت حبيبة القلب.. انني مليونير من اياهم.. قادر على مواجهة مصروفات الزواج.. وشراء الشبكة والمهر والنجف والسجاجيد وأجهزة المطبخ الكهربائية.. وهدية لزوم أم العروسة وهديتين من أجل خاطر عيون خالة العروسة..

إلا أن صديقتي الجميلة.. طمأنتني بأنهم لا يعرفون مسألة المهر والشبكة.. لأن الزوج والزوجة يتقاسمان جميع مصروفات الزواج.. بعيدا عن الأهل والأقارب.. وأكدت لي أنها تريد أن تعرف امكاناتي المادية.. وتفاصيل تحويشة العمر.. لتحسب بالضبط مقدار ما نملكه معا.. بعد أن تضع زيتها في دقيقي.. وفلوسها على فلوسي.. لنبدأ أول

خطوة فى رحلة المستقبل بشراء شقة مناسبة تصلح «لفخ» الزوجية المرتقب.

قالت لى صديقتى أن متوسط سعر الشقة الصغيرة. لا يزيد على مائتى ألف فرنك.. يعنى حوالى نصف مليون جنيه مصرى بالتمام والكمال.. وقبل أن أقفز من البلكونة.. هربا من فكرة الزواج.. طمأنتنى بأننا سوف نشترى الشقة والعفش والستائر والسيراميك الملون.. ونركب سيارة آخر موديل.. ونتفسح حول العالم.. بالتقسيط المريح.. والفضل لبنوك سويسرا الغشيمة.. التى أدركت مبكرا.. أن البنوك ليست مجرد حصالة فلوس.. إنما هى وسيلة للانعاش الاقتصادى.. وحركة الأمال.. والحركة بركة.. كما يقولون ويفعلون..

والحكاية.. أن سويسرا كانت تعانى.. كمعظم بلدان العالم من أزمة الاسكان.. لكن البنوك بادرت بحل المشكلة جذريا.. على أساس أنه لا يوجد مواطن صالح.. يكسب فلوسه من عرق جبينه.. ويملك فى جيبه ثمن الشقة.. التى تبلغ الشىء الفلانى.

سعادتك تحتاج لشراء شقة.. فتذهب إلى البنك.. تطلب شراء الشقة فى المكان الفلانى.. يرسل البنك مندوبا خبيرا.. يعاين الشقة.. ويتأكد من متانتها.. ومطابقتها للمواصفات القياسية.. ومن أن سعرها مناسب.. ومن أن جميع الترخيصات والأوراق سليمة.. ثم يقوم البنك بشراء الشقة نيابة عن حضرتك.. ويسلمك مفتاحا نظير عشرة فى المائة فقط من الثمن الكلى.. ويقوم البنك بتقسيط الباقى على ٢٠ أو ٢٥ سنة تدفعها فى شكل أقساط شهرية.. وبذلك تضمن أن البيت متين جدا.. بشهادة خبراء البنك.. وأى غش أو تلاعب فى المواصفات يتحمله البنك.

أما عن أقساط البنك الشهرية.. فهى تقترب من قيمة الايجار الشهرى.. ولهذا يقبل الجميع على الشراء.. باعتبار أن ملكية البيت ستكون لك بعد عشرين أو خمس وعشرين سنة.. وإذا فكرت فى بيعه قبل ذلك.. ستسترد ما دفعته مضافا إليه الأرباح.. وكأنك تودع أموالك

فى البنك.. وتسكن بالمجان..

وإذا حدث وتوقفت يوما عن دفع الأقساط الشهرية.. يقوم البنك بالتحرى.. فإذا كنت تواجه متاعب مالية.. لا بأس.. يقوم البنك بتأجيل أقساطه لفترة.. أما إذا كنت نصابا حضرتك.. استولى البنك على الشقة فورا.. ليبيعها لمشتر آخر من غير النصابين.

فرحت جدا بوظيفة البنك الاجتماعية.. وسألت صديقتى عما إذا كان البنك يقيم موائد الرحمن.. ويوزع بطاطين وحلاوة المولد على الفقراء والغلابة.. فقالت لى: إن ما يقوم به البنك ليس حسنة أو صدقة على أساس أن الحسنة بعشرة أمثالها.. ولكنه بنك تجارى استثمارى.. يعرف أصول الربح والمخاطرة.. وهو بطريق غير مباشر.. يشجع عمليات البناء.. ويشجع المقاولين.. ويساهم فى حل أزمة الاسكان..

بعد شراء الشقة.. تحتاج للعفش.. فتذهب إلى البنك.. الذى يقوم باقراضك لشراء العفش.. بضمان الشقة.. وحضرتك تدفع أقساطا شهرية على مدى ٣ سنوات.. ثم تحتاج سيارة.. فيشتريها لك البنك.. سواء كانت جديدة أو مستعملة.. بعد فحصها بدقة منعا للغش والفهلوة.. تحتاج لحمام سباحة فى حديقة الفيلا.. فيقوم البنك بالتمويل.. تحتاج لرحلة حول العالم.. فيسارع البنك لاقراضك.. وهكذا.. يلعب البنك دورا حقيقيا فى الإنعاش والرواج.. والسلف والدين..

وعمليا يدفع الموظف السويسرى.. حوالى نصف مرتبه فى صورة أقساط.. للشقة والسيارة والعفش واليخت وحمام السباحة.. وبعد ١٠ أو عشرين سنة.. تكتشف انك مليونير حقيقى.. لانك سددت ثمن الشقة التى قفز سعرها إلى مقدار الضعف.. وانك تملك سيارة أحدث موديل.. وتمتلك شاليها فى الألب ويختا فى البحيرة.. وانك تعيش فى يسر.. ومرتبك كله ملكك.. بعد أن سددت جميع الأقساط.

وطبعا هناك مخاطر عديدة.. كأن يتعرض البنك لخسارة صغيرة.. نتيجة لتوقف أحد العملاء عن الدفع.. أو نتيجة لتعرضه لعملية نصب

سريعة.. ولكن المخاطرة هي طبيعة عمل البنوك.. ومن بين كل مائة أو ألف عميل.. هناك واحد أو اثنان نصابان.. وهي نسبة محكومة ومدروسة.. ويستطيع البنك تعويضها بسهولة..

راح الفأر يجرى ويقفز في «عبى» واشتغل الكمبيوتر في عقلي بسرعة.. بعد ١٠ أو ١٥ سنة يمكن أن أصبح من أصحاب الملايين.. بفضل الشقة التي سوف يقفز سعرها أضعافا مضاعفة.. ولكن ماذا عنَ المستقبل.. فيما إذا ما وقع الطلاق لا قدر الله.. خصوصا أن الشقة في مصر من حق الزوجة.. فهل الحال كذلك في سويسرا الغنية؟!

سألت صاحبتي.. فأجابتني بعصبية واضحة.. بأننا مازلنا على البر.. وأن ما يربطني بها لا يزيد على خاتم صغير قدمته إليها.. مؤكداً أنه من مخلفات المرحومة جدتي.. قدمه إليها جدى الباشا عندما تقدم يطلب يدها.. وأكدت لي أن صديقتها قالت لها أنه خاتم من معدن رخيص جدا.. يبيعونه في منطقة سياحية اسمها خان الخليلي.. ومن غير المعقول أن أفكر في الطلاق والانفصال.. قبل أن تبدأ رحلة الارتباط والزواج.. ومع هذا.. فإنه في حالة الانفصال.. فإن الزوجة لا تحصل فقط على الشقة.. وإنما تحصل على نصف ثروة الزوج.. فتحصل على نصف الشقة.. ونصف العفش ونصف السيارة ونصف حمام السباحة.. ونصف فلوسي في البنك.. وأنني بهذا أتحول من مليونير حقيقي.. إلى مجرد نصف مليونير..

وعندما شاهدت حبيبتي علامات الخيبة والتراجع على وجهي.. قالت أنه من غير المعقول أن نحسب الأمور هكذا.. لأنه من المفترض أننا نعيش في مرحلة الرومانسية والأحلام.. وعلينا أن نؤجل المشاكل للمرحلة القادمة..

وراحت حبيبتي تواصل حديثها الممتع والمسلي عن بنوك سويسرا.. فقالت أن البنوك مؤخرا.. قامت بضربة ناجحة.. عندما قامت بشراء العديد من المخابىء النووية التي كانت تعاني من حالة الكساد..

والحكاية أن سويسرا المحايدة.. كانت تراهن على وقوع الحرب الذرية.. فقامت ببناء العديد من المخابىء النووية.. في كل مكان.. سواء أسفل المباني الحديثة.. أو فى الأماكن النائية.. وفي الحدائق والميادين.. على أساس أنه لو وقعت الحرب النووية.. فإن تلك المخابىء كفيلة بحماية ليس فقط المواطن السويسرى.. وإنما الأجنبى الذى يبحث عن الأمان.. فيقوم بشراء مخبأ نووى..

ولكن.. بخروج الاتحاد السوفيتي من المواجهة.. وانتهاء الحرب الباردة.. وزوال فكرة الحرب النووية.. وجدت سويسرا نفسها فى أزمة حقيقية.. وقد قامت ببناء الكثير من المخابىء النووية.. دون أن تستطيع تسويقها..

فقامت البنوك بشراء تلك المخابىء.. ويدرسون الآن تحويل بعضها إلى أسواق.. أو مدن للملاهي.. خصوصا أن بعض المخابىء قد أقيم على مساحات شاسعة تحت الأرض.. ثم أن فكرة الرعب النووى لاتزال قائمة.. بدخول بلاد جديدة إلى النادى النووى.. كالصين والهند مثلا.. وساعتها سوف تقفز أسعار المخابىء للضعف.. وساعتها سوف تكسب البنوك كثيرا..

وهكذا.. تشارك البنوك في جميع الأنشطة الحياتية.. فتقوم مثلا بشراء العديد من اللوحات الفنية.. ثم إعادة بيعها بعد ذلك.. وتربح ربحا لا بأس به..

وحتي اللوحات الجدارية الضخمة.. التى يقوم العاملون بتصميمها.. تقوم البنوك بشرائها.. وبذلك تضرب عصفورين بحجر واحد.. فهى تساعد العاملين من ناحية.. ومن ناحية أخرى.. تقوم بدعاية غير مباشرة للبنك الذى يشجع حركة الفنانين العاطلين..

والحكاية.. أن بعض إخواننا العاطلين من الفنانين.. قاموا بالاستيلاء على بعض المنازل المرشحة للازالة.. تمهيدا لبناء مساكن جديدة بدلا منها.. وقام هؤلاء الفنانون.. بتجميل جدران تلك المنازل بلوحات جميلة.. استخدموا فيها أساليب فنية حديثة.. لفتت اليها

الأنظار.. وشدت الانتباه.. إلى الحد الذى طالب فيه النقاد والمثقفون.. بوقف ازالة تلك المنازل الآيلة للسقوط.. حفاظا على تلك اللوحات الجدارية الجميلة.. فقامت البنوك السويسرية بشراء تلك اللوحات.. وتسعى الآن لنقلها كاملة إلى أماكن جديدة.. و.. الربح مضمون طبعا..

الغريب فى الأمر.. أن البنوك السويسرية.. التى تربح كثيرا.. لا تعطى فائدة على الودائع أكثر من ٤٪ سنويا.. لأن الغرض من ايداع الفلوس بالبنوك.. ليس هو الربح. وإنما الأمان وسرية الحسابات.. خاصة لأصحاب الودائع الكبيرة..

وتدعو البنوك السويسرية إلى نوع آخر من الاستثمار.. هو شراء الأسهم من البورصة.. ولأن المودعين لا يعرفون كثيرا فى شغل البورصة.. وخفايا الأسهم والسندات.. فإن البنك يقوم بالشراء نيابة عنهم.. ولهذا يساهم فى زيادة رأس المال والاحتياطى وسيولة الأموال لدى تلك الشركات.. والمكسب غالبا.. ضعف مكسب البنوك.. ولا يخدعك البنك.. لأنه يقول لك صراحة.. أن شراء الأسهم.. فيه مغامرة.. لأنه من الجائز.. أن تنخفض الأسهم فى الأسواق.. لكن البنك يقوم بتقليل المخاطرة.. عن طريق بيع حافظة أسهم.. تضم العديد من أسهم الشركات المتنوعة.. فإذا ما انخفض فيه سهم لاحدى الشركات فى البورصة ارتفعت فيه الأسهم الأخرى.

وعمليا.. فإن المواطن السويسرى.. الذى يتعامل فى البورصة عن طريق البنك.. يكسب ويربح أضعاف زميله الذى يفضل ادخار أمواله.. وحتى فى حالة الخسارة.. هناك شركات التأمين المتخصصة.. التى تغطى خسائر المودعين على الفور.. فالعملية مضمونة إذن.. والربح مؤكد.. وهم لا يعرفون هناك نظام الفلوس التى تبقى بالكوم فى البنك.. سعيا وراء عائد سنوى محدود..

وقالت صديقتى الجميلة.. أن أغرب ما فى الأمر.. أن مديرى البنوك الذى يقودون الآن ثورة حقيقية فى النظام المصرفى.. ليسوا من

العواجيز.. أصحاب الخبرات العريضة.. بل هم من الشباب خريجي الجامعات.. الذين يملكون القدرة على الابداع والمغامرة.. وأنها تعرف شخصيا مديرا لأحد البنوك.. لا يتجاوز الثلاثين من عمره.. ومع هذا استطاع بأفكاره المجنونة.. أن يعود بالملايين على البنك وعلى المودعين..

قلت لخطيبة المستقبل.. وقد فهمت تماما أصول اللعبة.. إنني شخصيا أملك فكرة عبقرية مجنونة.. يمكن أن تحقق الملايين والملايين.. فنستطيع مثلا أن نطلب سلفة من البنك السويسري نشتري سيارة زلكة من أحدث موديل.. ثم نذهب إلى مصر نبيعها هناك.. بأضعاف سعرها.. ثم نشتري من مصر.. بعض البضائع المطلوبة في سويسرا.. كبعض الخواتم ومجوهرات الفالصو من خان الخليلي.. ولا مانع من الملوخية الناشفة و«الويكة» لزوم اخواننا المصريين.. ثم نعود مرة أخرى لنطلب سلفة من البنك السويسري.. لنودعها في أحد البنوك المصرية لنستفيد من سعر الفائدة المرتفع.. فنسدد ما علينا للبنك السويسري.. ونعيد استثمار الباقي.. وهكذا نتحول إلى أصحاب ملايين خلال عامين أو ثلاثة.. بدلا من الانتظار عشر أو عشرين سنة.. ويمكن حتى أن نستلف من البنك السويسري.. ثم نفر هاربين إلى مصر.. دون أن نسدد ما علينا على اعتبار أننا من فئة الواحد في المائة النصابين.. الذين يتعامل معهم البنك..

نظرت إلى خطيبتي.. وقد امتقع لونها.. وقالت لي بعبارة مختصرة.. أنها كانت تتصور أنني شخص ملتزم.. ولست نصابا دوليا.. و.. خلعت خاتم الخطوبة.. وتركتني مسرعة..

وكما في الأفلام العربي.. لم أجر وراءها.. لأمنعها من الاقلاع والمغادرة.. وإنما وقفت أمام الباب أهتف باسمها مرتين.. وسألتها على فين..

فقالت وهي تغالب دموعها: سأتزوج مدير البنك!!

١٥

فى مسألة المواصلات و اللحمة .. القبقاب هو الحل



مع أن الوقت في أوروبا بالذات.. من ذهب عيار ٢٤ قيراطا.. إلا أننا نعرف الأصول والعيب.. ونمارس أخلاق القرية.. ونعترف بزعامة كبير العائلة.. وحتى لو كنا في رحلة بالشيء الفلاني.. ولا يصح ولا يجوز.. ولا يمكن أبدا.. أن نبدأ رحلتنا في جنيف السويسرية.. التي هي على بعد فركة كعب من لندن الانجليزية.. دون أن نتوقف عن «الصرمحة» لدقائق.. وأن نقوم باتصال تليفوني.. من باب جبر الخواطر.. لكبير العيلة.. وشيخ الطريقة.. وناظر مدرسة الفكاهة والمسخرة.. عمنا وتاج راسنا محمود السعدني.. خصوصا وهو يمارس رياضة الكسل اللذيذ. في فترة النقاهة الاجبارية.. بعد الأزمة الصحية الطارئة.

مع أن ناظر المدرسة.. وعلى طريقة المراكبية.. قد ألح في عزومتي بلندن.. إلا أنني اعتذرت وبشدة.. بعد أن تحول الولد الشقي مؤخرا.. من الفصيلة المفترسة.. أكلة اللحوم. إلى فصيلة المسلوق والسوتيه.. فلم تعد زيارته مسلية كأيام زمان. أيام اللحمة الهبر.. وطواجن المسبك والمحمر والمشمر..

وأقر وأعترف. أن محمود السعدني صاحب فضل.. وليس صحيحا ما يشاع. من أنني تعرفت عنده على اللحمة لأول مرة.. وقبلها كنت من أتباع مذهب السيخ الهندي.. الذين يأكلون اللحم في المناسبات الدينية.. والأعياد الوطنية.. ويقاطعونه باقي أيام السنة..

والصحيح.. أنني قبل معرفتي بالسعدني.. كنت أؤمن بالاسلوب الرومانتيكي الشاعري في الطعام. وأمارس الحكمة الخالدة: ما قل ودل. وكنت أحب اللحمة عن بعد.. أغازلها وأحاورها.. وأبعد عنها.. من باب الدلع والدلال. كنت أمر أمام الجزار كل يوم.. وأغني مريت على بيت الحبايب.. وأكتب الشعر العفيف.. وقصائد الغزل الحراقة.

وتعرفنا على السعدني وفي لحظة طيش وتهور.. وبعد أن سقانا حاجة أصفرا.. انضممت فورا إلى الحزب المفترس.. لأصبح أحد كوادره البارزين. أما وقد فقد الولد الشقي أهم ميزاته.. وتنازل عن هويته المفترسة.. فلماذا الزيارة أصلا.. والتي سوف تكون

على طريقة خالتي عندكم؟! ماجاتش..!!

ثم إنني حضرت لجنيف للاستمتاع والفرفشة.. مع أن سعر الدولار في النازل.. وفي الماضي كنا نستبدل الدولار بفرنك سويسري ونصف.. الآن تدهورت الأحوال. فصرنا نستبدله بفرنك واحد تقريبا. يعني ارتفعت تكاليف المعيشة على الزوار والسائحين من أمثالي. بمقدار خمسين في المائة.. مما تسبب في تدهور الموسم السياحي عندهم.. وانقطاع الجنسيات الدولارية. التي تتعامل في العملة الأمريكاني.. ومع هذا وبوصفي من محترفي شد الحزام.. ومدمني السياحة والسفر. فقد تعاملت مع البدائل المتاحة.. دون أن أفقد قدرتي على الاستمتاع والانبساط.

ولأن المواصلات مثلا في سويسرا بالساعة.. يعني تشتري تذكرة الترام أو الاتوبيس.. وتستخدمها لمدة ساعة واحدة لا أكثر. وبعدها تشتري تذكرة جديدة.. والتذكرة باثنين فرنك ونصف.. يعني ما يوازي ثمانية جنيهات بالسعر الرسمي لعملتنا الوطنية..

ولأن المضطر يركب الصعاب.. فقد استغنيت تماما عن المواصلات العامة وركبت قبقاب باتيناج. وهو يشبه قبقاب خالتي.. إلا أنه له عجل وفرامل.. والمهم انه يسير بسرعة مذهلة.. ولا يحتاج الأمر إلى تدريب ولا يحزنون.. تحرك ساقيك يمينا وشمالا. فينطلق القبقاب وحده.. وهو أرخص من المواصلات طبعا.. وأوفر من البنزين.. ثم إنها رياضة جميلة.. يمارسها الجميع.. لا فارق بين كبير وصغير.. غنيٌ وفقير.. وواحد أفندي محترم يلبس بدلة وكرافتة ويضع القبقاب في قدميه في طريقه للشغل.. وهناك مطاعم وكازينوهات واسعة.. تدخلها بالقبقاب.. والجرسونات فيها يلبسون القبقاب.. ويخدمون الزبائن.. ويتجولون بين الموائد.. ويحملون المشاريب دون أن تهتز أيديهم. ويتحركون بسرعة مناسبة. وقد فرحت بالقبقاب جدا.. واعتنقت شعار المرحلة. القبقاب هو الحل.!!

وتجولت بمزاج في شوارع جنيف. وتمنيت لو أن السادة المخترعين.. قد طوروا الصنعة.. ليخترعوا قبقابا مزدوجا.. يسمح لي بأن آخذ بنتا حلوة ورائي.. ليس من باب التوفير. وقسمة المصاريف على اثنين. ولكن من باب الوجاهة والمتعة المضاعفة.. وتمنيت أيضا لو استطاعوا اختراع قبقاب مخصوص.. يصلح لزحام مدن العالم الثالث.. ولمواجهة الحفر اللطيفة في شوارع القاهرة. لأن شوارع جنيف مصممة بطريقة تسمح برياضة الباتيناج وتشجعها.. ولا يعني هذا أنهم لا يعرفون الحفر.. لكنهم ناس رايقة والعياذ بالله.. يتعاملون في التو واللحظة مع الحفر والنتوءات.. وقد وقفت ذات ليلة أتفرج على عملية حفر ثم

اعادة رصف أحد الشوارع.. بواسطة خمسة عمال فقط لاغير. أحدهم يحدد بطباشير ومسطرة. والله مسطرة. مكان الحفر بالضبط.. والآخر بماكينة صغيرة يكشط حواف الحفرة المقترحة مكان الطباشير.. وبماكينة أخرى يحفر الثالث المساحة المشقوقة والمحددة بعناية. وبعد أن قاموا بالاصلاحات المطلوبة. بدأت عملية الرصف بالدقة نفسها.. عملية سريعة استغرقت ساعتين.. وقد شعرت بالغيرة والحسد وحضرة العامل كما الطبيب الجراح. يشق بطن الشارع. ثم يعيده لأصله من جديد.. لا زبالة.. ولا أكوام تراب. ولا أحجار متخلفة تسد الطريق.. وقد شعرت بالغيظ.. لأن العامل هناك يتعامل مع المسألة بدقة وحساب وعناية وتأنٍ.. وكأنه يرصف شقته الخاصة.. ولا أقول أن السويسرى أفضل من المصرى.. لأن المصرى فى الماضى كان يتعامل بنفس دقة السويسرى الآن.. فما الذى حدث؟! وهل أصابنا الترهل واللهوجة مع الستين مليونا..!! مع أننا نملك نفس المعدات. أم أنه غياب الاحساس بالمسئولية والرقابة. أم هى قلة الذوق والاستسهال والكلكة والفبركة. ووجدتنى أهتف وحضرة العامل الجراح.. يغسل مكان العملية الجراحية بالماء والصابون.. ليعود الشارع كما كان بالضبط.. وجدتنى أهتف كما الزعيم مصطفى كامل.. لولم أكن مصريا.. ولم أكمل..!!

المهم أننى استمتعت بجولتى الحرة فى شوارع جنيف.. وشعرت اننى لا البس القبقاب.. بل أطير بجناحين وأتجول بين السيارات بخفة عصفور.. وفكرت فى استغلال المسألة.. فى أن أسرح بكلينكس فى اشارات المرور عسى أن أضاعف دخلى.. لولا أنهم لا يعرفون هناك تلك الأساليب المربحة والمبتكرة.. فى التجارة والاسترزاق.

●●

قررت مادامت المسألة سهلة هكذا.. والمواصلات مجانية.. أن أخطف رجلى لحديقة الباستيون.. حيث أصدقائى القدامى.. يلعبون الشطرنج على الواقف فى الهواء الطلق. وهناك وجدت صديقى روبير قد هجر الشطرنج.. وجلس يضرب أخماسا فى أسداس. ويلعن حرب البوسنة الدموية.. التى ضيعت عليه حلم حياته بأن يصبح زعيما سياسيا من النوع الثقيل. عندما يطالب باستقلال جنيف عن سويسرا الأم. مؤكدا أن التجربة لو كانت قد نجحت فى الاتحاد اليوغسلافى.. لطالب هو أيضا بضرورة استقلال جنيف عن الاتحاد السويسرى. المكون من أربعة شعوب.. هم الألمان والطلاينة والفرنسيون وسكان الجبال الروماش..

قال لي صديقي: إن سويسرا صارت تخضع كثيرا لنفوذ القسم الألماني.. والذي يمثل سكانه ٦٥٪ من مجموع سكان سويسرا.. وفي كل استفتاء يلعب الألمان الدور الحقيقي في تحديد المسار.. مما أصاب باقي المقاطعات بالزهق.. فتوقفوا عن المشاركة في الاستفتاءات.. فلم يعد يشارك فيها سوى ٣٠٪ من مجموع السكان..

وعلى سبيل المثال. عندما طرحت فكرة انضمام سويسرا إلى الاتحاد الأوروبي.. تحمس جدا السويسريون الفرنسيون.. فوافقوا بالاجماع.. على أساس أن الوحدة قوة وترابط. لكن السويسريون الألمان.. رفضوا بوضوح.. فضاع حلم سويسرا في الانضمام لأوروبا الموحدة.

وفي العام الماضي.. كان هناك استفتاء لتغيير القوانين الاقتصادية.. بما يسمح بتشجيع الاستثمارات الأجنبية.. وفرح الفرنسيون وهللوا.. لكن المقاطعات الألمانية رفضت بشدة.. فسقط الاستفتاء.. وفي هذا العام تحمست المقاطعات الفرنسية للاستفتاء حول خروج المرأة للمعاش في سن الثانية والستين.. بدلا من سن الرابعة والستين.. لكن الألمان هاجوا وماجوا. وهددوا بأن خروج المرأة للمعاش المبكر.. يعني حرمانها من المعاش الكامل.. أسوة بالرجل..

قال لي صديقي العاطل عن العمل وقد ركبه العصبي: إن الألمان يستأثرون بكل شيء.. وأقاليمهم أكثر رفاهية من باقي الأقاليم.. ولا يعرفون البطالة. في حين أن طوابير العاطلين بالكوم في المقاطعات الفرنسية والايطالية.. وأن الحل هو في استقلال جنيف.. لتصبح امارة شبيهة بامارة موناكو.. أو لوكسمبرج.. وأكد لي أنه كان على وشك التقدم بالفكرة.. لطرحها للاستفتاء الشعبي العام. لولا حرب البوسنة.. التي خيم شبحها على أنصار التحرر والاستقلال..

و.. لم أتحمس طبعا لفكرة صديقي المجنون.. وخفت من فكرة الانفصال والحرب الأهلية.. التي لو حدثت لا قدر الله. لدفع المصريون الفاتورة.. على اعتبار أننا أصحاب سوابق.. وعندما اندلعت حرب العراق الكويت.. سقط المصريون أسرى.. وعندما اختلفت اليمن مع اليمن.. ضربوا المصريين هناك.. وعندما تطرف السودان.. دفع المصري أستاذ الجامعة ومهندس الري الثمن.. والأمثلة كثيرة

وعدت من جديد أتشعبط في القبقاب المتحرك.. مبتعدا عن الغام السياسة.. وأفكار صاحبي المجنون.. ورحت أحرك ساقي يمينا وشمالا بقوة.. رغبة في الانطلاق والطيران..

ومن الواضح أن رغبتي تحققت بسرعة.. لأنني طرت فعلا. وسقطت من الدور العاشر في وسط الطريق. "

لولا الملامة.. لبكيت من خيبتي الثقيلة.. وقد تبعثرت في وسط الطريق. لكنني لملمت نفسي بسرعة.. وكنت أشتم «الرايح والجاي».. فلم يكلف واحد خاطره. ليساعدني على الوقوف.. أو يشد من أزري. ووقفت على قدمي من جديد. وقد تأكدت أنني لم أدق عنقي.. أو أكسر ساقي.. وفرحت بشبابي. وبدأت في التحرك مرة أخرى. بأسلوب الخطوة خطوة. لكن كتفي وذراعي أعلنتا العصيان المدني. وبعد أقل من ساعة. تورمت كفي وقد انفجر شلال الألم!!

فكرت في الذهاب لأقرب مستشفى.. لكن الكمبيوتر تحرك في عقلي بسرعة. فالذهاب إلى المستشفيات هنا مشروط بأن تكون مشتركا في نظام التأمين الصحي وهو نظام حقيقي لا شبهة فيه للفهلوة.. فتتولى شركة التأمين تغطية جميع تكاليف العلاج. وأجرة التاكسي أيضا والمشكلة أنني ضيف عابر. بما يعني أن ميزانيتي المتواضعة جدا سوف تتحمل تكاليف العلاج. وهي تكاليف لا يقدر عليها سائح مكسور الذراع والخاطر مثلي.. عكس الحال في البلاد الانجليزية. حيث تطبق بريطانيا الرأسمالية.. أسلوب العلاج الاشتراكي المجاني. وسواء كنت انجليزيا مقيما.. أو سائحا عابرا.. فأنت تتمتع بالعلاج المجاني وهو مكسب حقيقي أضافته حكومات العمال الانجليزية.. ولم تستطع حكومات المحافظين اليمينية القضاء عليه.

وقررت تجاهل أزمة ذراعي المكسورة.. على أساس أن الألم مسألة نسبية يمكن تحملها.. ومن المؤكد أن حدته سوف تخف بمرور الوقت.. لكن المصيبة أن كفي صارت بحجم البطيخة الشليان.. وقد تضاعف الألم. وتصور الناس أنني «حاوي» مثل ديفيد كوبر فيلد.. خصوصا وقد جلست على قارعة الطريق.. أحسبها بدقة.. فهل أذهب إلى المستشفى وأخسر فلوس الرحلة.. أم أطنش عن المسألة.. وهتفت بلوعة مثل المرحوم هاملت.. أروح. أو.. لا أروح.. تلك هي المشكلة.

وانفجر الصراع بين العاقل والمجنون داخل نفسي.. وانتصر طبعا الأخ المجنون.. لأنني ذهبت للمستشفى بقدمي..

ذهبت أقدم رجلا.. وأؤخر الأخرى.. لكن البنت الممرضة التي وقعت في غرامها من أول حقنة.. والتي تنافس ملكات الجمال. سحبتني بسرعة إلى غرفة الأشعة.. وحاولت أن أشرح

حالتى . وأن أتناقش معها بموضوعية حول تكاليف العلاج.. وأحوال الموظفين فى حكومة عاطف صدقى.. إلا أنها طيبت خاطرى.. وأخذتنى مع صور الأشعة إلى حضرة الطبيب الرقيق المؤدب.. الذى طمأننى بأننى حسن الحظ لأننى لم أكسر ذراعى.. وأن المسألة لا تتعدى خلعا بسيطا فى عظام الكف.. يحتاج لجبيرة لمدة أسبوعين.. ونصحنى بالتوقف فورا عن ممارسة رياضة الباتيناج.. التى لا تجوز لمن هم فى مثل سنى.. وعندما حاولت مناقشته فى قضية الرياضة والسن. صرفنى برفق.. وطلب منى الحضور فى اليوم التالى.. للتأكد من أن الجبيرة تقوم بدورها

غادرت المستشفى وأنا أضرب كفا بيلاستيك.. لأن كفى الأخرى فى الجبيرة البلاستيك.. وأنا أتعجب من أن سويسرا الرأسمالية لم تطلب منى أن أضع على الترابيزة تكاليف العلاج مقدما.. ولم تطلب منى شراء الحقن والشاش والجبيرة البلاستيك.. وأن أحدا لم يطلب بطاقتى ليتأكد من صحة البيانات.. وأننى أستطيع طبعا وبعد أن تلقيت العلاج أن أهرب بجلدى وقلت فى نفسى: ربما يكون الطبيب قد أخطأ فى الاجراءات .بعدم تقاضى الأتعاب مبكرا.. وربما يرفدونه من المستشفى بسببى.

وفى اليوم التالى.. كشف على الطبيب.. واطمأن على وضع الجبيرة .وطلب منى الذهاب إلى السكرتيرة. التى قدمت الفاتورة.. بعد انتهاء العلاج تماما.. وبلغت ٣٠٠ فرنك بالتمام والكمال.. أو ما يقرب من ألف جنيه مصرى.. وأفهمتنى السكرتيرة بابتسامتها الساحرة.. أن التكاليف كان يمكن أن تكون مائتى فرنك فقط.. لكنى حضرت لقسم الحوادث بدون موعد مسبق.. ولهذا أضافوا مائة فرنك على الفاتورة.. صحيح أننى لا يمكن أن أتنبأ بموعد الحادث .لكن النظام نظام.. وابتسمت برقة.. و .دفعت الفلوس.

غادرت المستشفى أبكى بدموع حقيقية على الفلوس الضائعة.. وألعن فكرة قبقاب الباتيناج.. وفى البيت حاصرتنى الكوابيس والأحلام المزعجة. وخفت أن يقع لى حادث جديد.. فاضطر للتعامل مرة أخرى.. مع الدكتور أبو رجل مسلوخة. أو مع الممرضة التى تشبه زينات صدقى. وأن أضطر إلى بيع هدومى.. مع أنها رخيصة جدا .

و.. فى اليوم التالى.. حزمت أمتعتى.. وغادرت إلى لندن.. حيث العلاج مجانى. وحيث عمنا محمود السعدنى..

مع أنه لا يأكل اللحم..!!

١٦

يا عزيز يا عزيز
كبة تاخد الانجليز



وحد القطار ما بين دول أوروبا.. مع أنها أبعد ما تكون عن شروط الوحدة التي نسمع عنها.. ونحلم بها.. ونغني لها.. وحدة اللغة والتاريخ والدين والآمال والآلام.. دول أوروبا متخاصمة متصارعة في الغالب.. بعضها يتكلم انجليزى.. والبعض يرطن فرنساوى.. وهناك الألمانى والطليانى والأسبانى والبرتغالى.. وهناك دول فقيرة تستحق اعانة من الأوقاف.. وهناك الامبراطوريات التي لا تغيب عنها الشمس.. وإن غابت بفعل التاريخ والجغرافيا والتربية الوطنية.. وحركات تحرر الشعوب.

دول أوروبا خاضت الحروب ضد بعضها البعض.. وهناك من احتل أراضي جيرانه.. واستباح وقتل وسجن أهلها.. وهناك من قاد الحرب الشعبية.. ضد الجار المحتل..

بالاختصار المفيد.. وحد القطار ما بين أوروبا المتخاصمة.. التي أدركت في الوقت المناسب لغة المصالح.. واكتشفت قوانين الاقتصاد.. وعرفت أن القطار ليس فقط لتبادل البضائع والأشخاص.. وإنما هو أيضا الوسيلة المثلى.. لتبادل الأفكار ووجهات النظر.. ونقل الحضارة.. والقفز إلى المستقبل..

وقطار أوروبا.. ليس هو القطار الذى نعرفه في بلادنا.. ونطلق عليه اسم القطار.. من باب الدلع والتدليل.. تماما كما تطلق خالتى أم زنجر على ابنها اسم الباشا والدكتور.. على سبيل التفاخر والتمنى وكيد العزال..

قطار أوروبا.. ينافس الآن الطائرة البوينج.. ليس فقط فى الأسعار.. وإنما في السرعة أيضا.. ويقطع مسافة ٣٠٠ كيلو متر فى ساعة واحدة.. يعنى يقطع المسافة من جنيف إلى باريس فى ثلاث ساعات ونصف الساعة.. ومثلها من باريس إلى لندن..

والقطار هناك.. مثل كل شيء يجرى بالكمبيوتر.. ومن خلال غرفة مراقبة أرضية.. تشبه غرفة المراقبة الجوية فى الطائرات.. يحتاج لقضبان خاصة.. لأنه يكاد يطير على الأرض.. وهو ثورة حقيقية في عالم النقل والمواصلات.. بدأت فرنسا استخدامه عام ١٩٨١.. ثم امتد النشاط إلى جنيف ولوزان.. ثم إلى لندن.. وإلى بروكسل.. ثم راحت باقى دول أوروبا فى استخدامه ليكون شبكة حقيقية تربط بلدان أوروبا .. ببعضها البعض..

القطار العظيم السرعة.. وهذا اسمه بالمناسبة.. أكثر أمانا من الطائرة.. لأنه مصمم بطريقة مخصصة.. لا يمكن معها السقوط.. يعمل بالكهرباء.. ولا يلوث البيئة.. وهو أكثر رلحة. والمهم انه يستوعب ٧٧٠ راكبا.. أى أكثر من ضعف ركاب الطائرة العادية.. ويتوقعون أن يحل محل القطار التقليدى فى المستقبل.. لأنه أسرع قطار فى العالم.. وهناك ٧٩٠ ألف مسافر يستخدمونه كل طلعة شمس.. يعنى ٢٨٧ مليون راكب فى السنة.. وينقل فى العام الواحد بضائع وزنها ١٣٧ مليون طن.. ما بين بلدان أوروبا التى تستخدمه..

ومن أجل خاطر عيون القطار السريع.. تخلت بريطانيا عن عزلتها التقليدية.. وتنازلت عن عنجهيتها .. وتعاليها على باقى دول أوروبا .. كجزيرة في وسط البحر.. تربطها بأوروبا العبارات الضخمة.. تعبر بحر المانش.. الآن ولأول مرة فى التاريخ.. ترتبط بريطانيا بأوروبا .. عبر نفق ضخم تحت الماء.. يقطعه القطار فى حوالى نصف ساعة..

صحيح أن نوايا بريطانيا ليست لوجه الله.. وليست لوجه القطار.. لكنها فعلت ذلك.. لتكون فى قلب أوروبا الموحدة.. التى من المتوقع أن تكون القوة الثالثة.. فى مواجهة الغول الأمريكى.. والبعبع اليابانى.. المتنافسين الرئيسيين فى القرن القادم..

وأوروبا التى اخترعت القطار السريع.. لا تعانى من الشيزوفرينيا.. لأنها اخترعت القطار.. واخترعت معه القوانين البسيطة.. التى تسهل من مهمته.. فالغت موظفى الجمارك.. لأنه لا لزوم لهم.. وفى أوروبا الموحدة.. حركة البضائع تتم فى سهولة ويسر.. والحركة بركة كما نقول نحن فى

شرقنا الأوسط الغارق فى النوم.. وإجراءات دخول مواطن أوروبى من دولة لأخرى.. صارت أسهل من شكة الدبوس.. والفيزا الأوروبية صارت موحدة.. ومادمت تحمل تأشيرة لحدى الدول.. من حقك الانتقال إلى معظم الدول الأخرى.. بنفس التأشيرة.. وفى القطار السريع.. لا تدرك أنك انتقلت من دولة لأخرى.. إلا بالصدفة.. ونتيجة لتغير اللغة التى تكتب بها اللافتات.. وأسماء الشركات والمحلات على الطريق..

لا يعرفون الآن فى أوروبا.. حكاية نقاط التفتيش.. والمدافع الرشاشة فى أيدى الجنود.. والحواجز الضخمة والأسلاك الشائكة.. بين حدود دولة وأخرى.. ومن الواضح أنها اختراعات منقرضة.. تخلت عنها دول أوروبا.. ولا نراها الآن سوى فى الأفلام القديمة.. أو فى بلادنا المستقلة.. وقد عاينت المسألة شخصيا.. وتعمدت الدخول والخروج.. من جنيف إلى فرنسا وبالعكس.. عشر مرات فى اليوم الواحد.. عسى أن يضبطنى جندى واحد من حرس الحدود.. دون جدوى..

ومع أننا ـ أولاد العرب ـ من هواة الاقتباس والنقل عن أوروبا الحديثة.. من الابرة للصاروخ.. إلا أننا فى مسألة الحدود ـ والتراب الوطنى بالذات ـ لا نفرط ولا نساوم.. وأراهن لو استطاع مواطن عربى.. أن يمر من نقطة حدودية واحدة.. فى أى دولة عربية.. دون أن يخلع ملابسه كاملة.. للتفتيش طبعا.. وليس لأسباب أخرى.. بل إن المواطن المصرى.. لا يستطيع أن يعبر مثلا.. من المدينة الحرة «بورسعيد» أو إلى داخلها.. دون أن يتوقف عدة مرات للتفتيش.. والسؤال عن الصحة والأحوال.. وأسباب الزيارة الكريمة..

ومع أننا شعب واحد.. فى وطن واحد.. لا أعرف لماذا لا نستخدم القطار السريع.. ليربط بين بلادنا.. كوسيلة سهلة للترابط والمعرفة.. مع أننا فى عهد المحتل الغاشم كنا نستخدم هذا القطار.. الذى كان يمتد من حلب السورية إلى أوروبا.. والغريب أننا نملك الفلوس. ونشترى جميع أنواع السيارات.. المعروفة وغير المعروفة. ونقتنى الطائرات..العامة والخاصة.. لكن فى مسألة القطار بالذات.. هناك حالة من الخصام.. لا أعرف لها سببا..

بل إننا في مصر المحروسة.. التي ترفع شعار السياحة هي المستقبل.. ولدينا وزارة كاملة للسياحة.. لها وزير ووكلاء وزارة.. ومديرو عموم.. وهيئة تنشيط. ومجلس أعلى.. وميزانية وسيارات وسفريات.. ومع هذا نضرب السائح.. ونصر على استخدام القطار الحجرى.. نسبة إلى العصر الحجرى.. الذى يقطع المسافة من القاهرة إلى الأقصر فى ١٦ ساعة.. وأحيانا فى عشرين ساعة.. بالتقسيط غير المريح.. مع أننا وبالقطار السريع.. نقطع نفس المسافة في ثلاث ساعات فقط.. لكنها العادات والتقاليد.. والبعد عن الأفكار المستوردة.

ولو كنا جادين حقا.. ونرغب في تحقيق الوحدة العربية واقعيا.. وليس بالكلام والشعارات والأغانى الحماسية.. لاستوردنا هذا القطار فورا.. لنربط المحيط بالخليج.. بحق وحقيق.. لنخلق حالة من التعارف والتآلف العربي.. نفتقدها بشدة.. وتصور أن المسافة من المغرب إلى الاسكندرية يقطعها القطار السريع.. في تسع ساعات فقط لاغير..

وأقر وأعترف.. اننى رغم دعوتى لاستخدام القطار السريع.. إلا أننى شخصيا متحمس بالكلام النظرى فقط. ولا أستطيع التعامل بواقعية مع الفكرة.. وتخيل حضرتك.. أنك لو ركبت هذا القطار.. في سياحة عربية داخلية.. كما يفعلون في أوروبا.. فسوف تعرض حياتك لخطر عظيم.. وسوف تصادر فلوسك وأوراقك.. وسوف يتحفظون على شنط هدومك.. وكتبك ونظارة القراءة.. وسوف تزور جميع السجون العربية بلا استثناء.. في سياحة من النوع المخصوص.. مرة بتهمة الشيوعية.. ومرة بتهمة الناصرية.. ومرة بتهمة الرجعية والعمالة للأمريكان.. وتارة لأنك جاسوس متنكر.. وتارة لأن شكلك يشبه واحد سوفيتي.. وسوف تعرض على جميع نيابات أمن الدولة.. وتهريب العملة والمخدرات.. ومباحث التزييف والآداب.. والتموين أيضا.

وفى النهاية سوف يودعون حضرتك مستشفى الأمراض العقلية.. والسبب انك مجنون رسمى.. وضعت نفسك موضع الشبهات.. بركوبك هذا القطار العجيب..

أنا شخصيا.. تعرضت لتجربة مماثلة.. وقد ذهبت إلى تونس ذات يوم من خمسة عشر عاما.. وفى مطار تونس احتجزنى حضرة الموظف «الرائق» ثمانى ساعات كاملة.. والسبب أننى ذهبت لتونس من لندن.. وليس من القاهرة.. وفتشوا حقائبى خمسين مرة.. وفتشونى ذاتيا.. بحثا عن قنابل أو منشورات.. واتهمنى حضرة الموظف بوضوح.. اننى حضرت لتخريب نظام بورقيبة.. مع اننى ذهبت مع فوج سياحى انجليزى.. لم يتعرض واحد منهم لمثل ما تعرضت له من مضايقة.. ولم يفرجوا عنى.. إلا بعد أن تعهدت بتسجيل اسمى فى قسم الشرطة يوميا.. كأصحاب السوابق.. ليتأكدوا من حسن سيرى وسلوكى المؤدب.. تجاه نظام الزعيم بورقيبة..!!

وإذا كان القطار السريع.. هو اختراع أوروبى.. فإن مترو الأنفاق.. السريع أيضا.. هو اختراع انجليزى.. ومن حق بريطانيا أن تفاخر به الأمم.. يوم الحساب.. ومترو لندن.. هو أحد عجائب الدنيا.. لو جاز التعبير.. فهو الأضخم والأكبر والأقدم.. وقد دخل الخدمة منذ مائة وعشرين عاما.. يعنى كانت المواصلات ساعتها رائقة والحياة سهلة.. ولم يعرفوا وقتها اختراع الزحام.. ومع هذا فكروا وخططوا ونفذوا مترو لندن.. وتنبأوا بأهميته فى المستقبل.. ربما لأن الفلوس وقتها كانت بغير حساب..

وفى مترو لندن.. أتصرف براحتى.. ولا سبيل للحرج.. وأشعر أننى صاحب بيت.. لأن هذا البناء الضخم.. تم على حسابى الخاص.. ومن نهب كنوز وخيرات مصر.. وقطن مصر وقناة سويس مصر.. ولهذا فإننى شريك بالنصف فى هذا الانجاز المعقد.. والذى يفرح القلب.. ويضم ٢٧٠ محطة بطول العاصمة وعرضها.. وفى بعض المحطات.. يمتد البناء.. ليصبح عمارة كاملة من خمسة طوابق تحت الأرض.. ولكى تركب المترو.. عليك أولا بمراجعة دروس الجغرافيا والرسم البيانى.. لكى تذاكر خريطة المترو.. وحتى تحدد طريقك بدقة.. بين ٢٣ خطا متقاطعا ومتداخلا.. تشمل جميع أحياء العاصمة البريطانية.

والنزول طبعا للمترو.. والصعود منه.. عن طريق السلالم المتحركة

أتوماتيكيا.. والتى لا تعطل أبدا.. بفضل الصيانة المستمرة.. لأن المهم هو راحة الزبون.. والاعلانات على جانبى السلم.. تطالعها فى صعودك وهبوطك.. أشهرها اعلانات البريد والتليفون.. لتشجيع المواطن على استخدام تلك الخدمات الممتازة.. التابعة لشركات تجارية.. تحقق أرباحا ضخمة.. والمهم أنها منضبطة وبامتياز.. تماما كالساعة السويسرية..

وياميت خسارة.. على مترو الأنفاق العظيم.. وقد تدهورت به الأحوال.. فصار تجمعا حقيقيا.. للاخوة من قبيلة عشانا عليك يارب.. والخيبة القوية.. أنهم متسولون ماركة «حسنة قليلة تمنع بلاوى كثيرة».. يعنى متسولين بشكل واضح صريح.. لأن المتسول فى باقى دول أوروبا.. يتسول بالموسيقى والرسم والرقص.. لكن متسولى لندن لا يتجملون.. ويفتقدون للحس الفنى.. والواحدة منهن تضع طفلا على كتفها.. أو تسحب رجلا عجوزا.. وتمد يدها.. لله يا محسنين.. فشر شحاتين السيدة والحسين.. وإذا كان يجوز أن نرى أكوام الشحاتين فى السيدة.. بحكم عوامل الفقر وقلة الحيلة.. فإنه لايجوز أن نراهم فى مترو لندن.. عاصمة الامبراطورية التى لا تغيب عنها الشمس..

والغريب أنهم ليسوا من المحتاجين.. لكنهم نصابون وممثلون من الدرجة العاشرة.. والواحدة منهن تربط رأسها بمنديل.. وتدعى أنها من لاجئات البوسنة.. مستغلين حالة التعاطف الشعبى من مأساة البوسنة وأهالى البوسنة من المسلمين.. وهى فى حقيقتها انجليزية من النوع الفاجر.. تتكلم «كوكنى» اللغة الدارجة فى شوارع لندن.. وفى يدها سيجارة ماريجوانا.. وتشرب البيرة الساقعة.. وواحد آخر يأنف أن يقول: لله يامحسنين.. فيضع أمامه يافطة مكتوب عليها حكمة اليوم: التسول خير من السرقة.. مع أنه طول وعرض.. لكنه الاستعباط والوجه المكشوف.. خصوصا أنهم يتكومون فى المحطات التى يكثر فيها السياح العرب.. مثل ماربل أرش.. واكسفورد ستريت.. وكوانيزاوى.. على أساس أن العربى طيب وابن حلال وعلى نياته.. وخيره لغيره.. ويعطف على الفقراء والشحاتين.. خصوصا من الصنف الانجليزى مكسور الجناح..

الغريب في الأمر.. أن عمليات التسول تتم في وضح النهار.. وعيني عينك.. ورجل البوليس الانجليزي.. بالسلطانية السوداء فوق رأسه.. والمشهور بالحسم والحزم.. واقف يتفرج.. وكأنه يقتسم معهم الحصيلة آخر النهار.. أو كأنهم يتسولون بتصريح رسمي.. وبرخصة من حكومة المحافظين.. ووجدتني أغني وطوابير الشحاتين تحاصرني من اليمين والشمال.. تماما كما غنى المرحوم جدي: ياعزيز ياعزيز.. كبة تاخذ الانجليز.

وفي الهايد بارك.. وقد جلست ذات صباح أخطط للبرنامج اليومي.. إذا برجل مهيب يتقدم نحوي ويحسم.. وهو يلبس بذلة آخر موضة.. من صوف انجليزي أصلي.. وقد خفت وحسبته صاحب الحديقة.. أو عضوا في مجلس الشورى هناك.. فإذا به ومناخيره في السماء.. يطلب مني جنيهين استرلينيين.. لكي يفطر حضرته.. وحسبتها فوجدته يطلب ١١ جنيها مصريا.. أكسبها أنا بطلوع الروح.. ومع انني شعرت بالزهو والفرح.. لأن الانجليزي ابن المحتل القديم.. قد اختارني أنا بالذات لأقرضه المبلغ المطلوب.. إلا انني رفضت وبوضوح.. بل ونهرته بشدة.. لأن الأقربين أولى بالمعروف.. ولا تجوز الحسنة لمن هو يعيش في رفاهية الانجليز.. حتى لو تدهورت بهم الأحوال.. وانخفضت مستويات معيشتهم.. ثم إنه لم يطلب بأدب واستجداء..

ويظل الانجليزي.. ولو كان عاطلا عن العمل.. إلا أنه يتقاضى اعانة بطالة.. لا تقل عن خمسين جنيها استرلينيا في الاسبوع.. يعني الف جنيه مصري في الشهر.. منتهى الاستهبال وقلة الذوق والطفاسة..

وقد تصورت والحكاية هكذا.. انني ربما أصادف بائع عرقسوس.. أو رجلا يسرح بأمشاط وفلايات.. أو يأكل الأمواس ويقول: خمسة يكتفوني.. ومع هذا فقد صادفت هذا الرجل.. ليس في مترو الأنفاق.. ولكن في ميدان كوفنت جاردن.. حي الأوبرا والمسرح والفنانين.. كدليل حي.. على تدهور الأحوال.. في الامبراطورية التي حكمت العالم بالكرباج والحديد والنار..

ومن الواضح.. أن التدهور لم يقتصر على مسألة التسول.. وشغل الحواة.. ولكن هناك نشالين أيضا.. وفى المترو وفى جميع المحلات الكبيرة أو الصغيرة.. لافتات واضحة تحذرك من النشالين..

أنا شخصيا لم أتعرض لأية محاولات للنشل.. ربما لأن المظهر لا يوحى بالثقة للاخوة النشالين.. لكنى صادفت حادث نشل فى اتوبيس لندن التقليدى.. أبو دورين.. عندما صرخت سيدة فجأة.. تقف بالقرب من الباب تستعد للنزول.. وقالت لخواجة انجليزى.. بوجه أحمر وتبدو عليه دلائل العز والنعمة.. وهو يقف بالقرب منها: شيل ايدك من الشنطة.. وبعد أن شال يده.. قالت له باحتقار: أنت حرامى.. ثم غادرت الاتوبيس..

الغريب.. أن أحدا لم يتحرك.. ولم يتنحنح ويهز طوله.. ويضرب الحرامى قلمين.. وقد وقفت استعدادا للتحرك والمشاركة فى الموقعة.. لكنى انكسفت عندما لم يتحرك أحد.. وخفت أن يحسبنى الركاب شريكا لحضرة الحرامى.. فجلست بسرعة.. ولو كانت الحادثة قد وقعت فى اتوبيس بقاهرة المعز.. لقام جميع الركاب. بما فيهم السائق والكمسارى.. ليضربوا الحرامى.. بالعدل والقسطاس.. ولتعرض الحرامى شخصيا.. لسرقة هدومه وفلوسه.. قبل أن يجرجروه فى زفة بجلاجل إلى قسم الشرطة.. على أنغام الصفعات والركلات.. وأدركت ساعتها وبالصوت والصورة.. معنى تشبيه الانجليزى بأنه بارد.. وبامتياز.. خصوصا وقد وجدت أحد رجال الشرطة الذين كان يقف على شنباتهم الصقر فى الماضى.. وقد أدار وجهه بعيدا.. وكان الأمر لا يعنيه.. وقد حلق شنبه.. فطار الصقر.. وضاعت الهيبة..

عليه العوض.. ومنه العوض.. على الامبراطورية التى غابت عنها الشمس.. وانحسرت.. فراحت فى سبات عميق.

١٧

لا جونلة ولا بلوزة .. ولا
حاجة ابدا التوبلس يا جماعة



ياعيني على بنت الأصول.. سليلة الحسب والنسب.. حضرة جلالة ملكة بريطانيا العظمى.. والدماء الزرقاء تجرى فى العروق.. أبا عن سابع جد.. وقد تدهورت بها الأحوال.. واشتدت الأزمة.. فاضطرت إلى تأجير القصر الملكى لمن يدفع الثمن.. ولأول مرة فى التاريخ.. يصبح دخول قصر باكينجهام.. المقر الرسمى لملكة بريطانيا.. بتذاكر وفلوس.. لكل من هب ودب.. تماما مثل دخول السينما والسيرك واللونابارك.. ولولا الملامة.. لقامت جلالة الملكة بتأجير حجرات القصر مفروشة بالنفر.. لفقراء السائحين من أمثال حضرتنا.. مثلما تفعل السيدة خالتى فى بيتها المتواضع فى موسم الصيف.

ومع أن جلالة الملكة اليزابيث الثانية.. هى أغنى امرأة فى العالم.. بشهادة البنوك وسماسرة البورصة.. وثروتها كام مليار استرلينى.. واضرب فى خمسة ونصف.. لتترجم الثروة إلى العملة المصرية.. وهناك كام مليون استرلينى «فكة» كمرتب سنوى تتقاضاه من الحكومة.. بالاضافة إلى العلاوات ومنح الأعياد.. نظير القيام بأعباء وظيفتها كملكة متوجة على البلاد.. إلا أن البحر يحب الزوادة..

أقصد أن جلالة الملكة.. ليست فى حاجة عاجلة لتأجير القصر.. لكنها فلسفة العصر.. وشغل البيزنس.. وقد أصبح كل شىء للبيع والايجار.. حتى قصر باكينجهام.. رمز الامبراطورية التى لا تغيب عنها الشمس.. كدليل حى على تغير الأوضاع.. أوضاع الحكام والمحكومين.. وتبدل المفاهيم.. وضياع الهيبة..

وفى الماضى القريب.. ومنذ أقل من ٢٠٠ سنة.. وفى فرنسا المجاورة.. كانت إحدى علامات السعد والشرف والفخار.. أن يسمح لك بدخول

القصر الملكي.. وأن تكون شاهد عيان للحظة ذهاب جلالة الملك لويس الرابع عشر إلى السرير.. أو أن تكون شاهدا للحظة صحيان جلالته من النوم.. وكان من يحضر هذه المناسبات السعيدة.. يعد من المحظوظين.. ومن ذوى الحظوة.. ومن المقربين جدا.. الذين لهم كلمة فى البلاط الملكى.. وفي دوائر الحكام.. ولهذا كان جلالة الملك يختار بعناية من بين النبلاء والأمراء.. من يحظى بهذا الشرف الرفيع.. ليعسكر فى غرفة نوم جلالته.. لحضور الاحتفالات المهيبة لذهابه إلى السرير.. ويختار نبلاء آخرين لحضورالاحتفال التاريخى.. للقيام من السرير فى الصباح.

صحيح أن جلالته ملك «عيل» تولى الحكم فى سن الخامسة.. لكن هذه العادة.. عادة الاحتفالات المهيبة قبل وبعد السرير.. امتدت لأكثر من ستين سنة قضاها فى الحكم.. وكان هناك من النبلاء والأمراء العاقلين البالغين.. من يتحسر طوال حياته لأنه لم يحظ بشرف رؤية جلالة الملك بالبيجاما فى السرير.. وهناك من ينتحر حزنا وقرفا من الدنيا الفانية.. التى حرمته من نعمة أن يقول تصبح على خير يامولانا..

ويفسرون فى بريطانيا.. أن جلالة الملكة.. اضطرت إلى تأجير القصر.. لمواجهة غلاء المعيشة والأزمة الاقتصادية.. ولأن حديقة القصر الواسعة.. تحتاج لعناية من النوع المخصوص.. وتحتاج لتكاليف وميزانيات وأنفار للتشغيل.. ولهذا أصبح من حقك وبفلوسك.. دخول قصر باكينجهام شخصيا.. وأن تتجول ليس فقط فى الحديقة.. لمشاهدة تغيير الحرس الملكى.. وهى فرجة حقيقية بالمناسبة.. لكنك بالمرة.. وفوق البيعة.. تتجول فى قاعات القصر.. وفى حجراته وممراته.. لتشهد بنفسك زوال العز القديم.. وتبصم بالعشرة.. على انك تعرفت بشكل واقعى على مغزى الحكمة القديمة.. عزيز قوم ذل.. بشرط أن تكون الزيارة من ٧ أغسطس إلى ١٢ أكتوبر.. أثناء غياب جلالة الملكة.. فى رحلتها السنوية إلى قصرها الصيفى.. بعيدا عن قصر باكينجهام.. وخلال تلك الفترة.. فإن كل شىء مفتوح ومباح فى القصر الملكى للسياح والزوار بتذاكر.. ماعدا طبعا غرفة نوم جلالتها. والحمام الملكي.. والتواليت الخصوصى.. وربما ينظمون فى

الخطة الخمسية القادمة.. رحلات اضافية إلى التواليت الملكي.. للسياح المزنوقين..

سلوك حضرة جلالة الملكة.. يثبت صدق نظرية خالتي رتيبة.. التي تؤجر شقتها مفروشة في الصيف.. والتي ترفع شعار أكل العيش يحب الخفية.. وبدلا من أن تمد يدها لفلان أو علان.. تقوم بتأجير قصرها بالاسترليني..

وبمناسبة الاسترليني.. فإن صورة الأديب الانجليزي الأشهر تشارلز ديكنز.. تزين العملة الانجليزية.. جنبا الى جنب صورة الملكة اليزابيث.. تعبيرا عن تقدير الدولة والمجتمع والملكة شخصيا.. للأديب الكبير الذي أثرى الوجدان.. وعبر عن هموم المواطن الانجليزي الغلبان والمطحون.. ومن الواضح انه اتجاه أوروبي.. لتكريم العلماء والفنانين وكبار الأدباء.. وفي فرنسا يضعون صورة ميلينا ميرى كورى على الفرنك الفرنسي.. وفي سويسرا يضعون على الفرنك السويسري صورة لويس فافر.. المهندس المشهور.. وأول من حفر نفقا ضخما في جبال الألب.. من الأراضي السويسرية إلى الأراضي الايطالية..

وأخشى أن أطالب بوضع صورة الأدباء والفلاسفة والمفكرين المصريين على الجنيه المصري.. حتى لا يقوم السادة بوضع صورة عاطف صدقي وفتحي سرور.. بدلا من نجيب محفوظ وحسن فتحي وطه حسين ويحيى حقي ويوسف ادريس.. ولنا في ذلك سوابق.. وقد فاز الثنائي صدقي - سرور.. بجائزة الدولة التقديرية.. في الفنون والآداب.. في سابقة لم تتكرر من قبل.

وإذا كانت الحاجة اليزابيث.. تفتح قصرها للسياح.. فإن بريطانيا كلها تفتح ذراعيها للسائحين من جميع أنحاء الدنيا.. ومع أن لندن العاصمة.. تضم ١٣ مليون مواطن.. فإن شوارعها تستوعب ٢٦ مليونا.. على اعتبار أنها تستقبل شهريا وخلال موسم الصيف ١٣ مليون سائح.. يعني من كل اثنين يمشيان في الطريق العام.. ويركبان المواصلات.. هناك سائح واحد على الأقل.. ولهذا يقولون إن لندن مدينة «كوزمو بوليتان».. يعني مدينة عالمية.. تتكلم أية لغة من لغات العالم.. ومن المؤكد أنك سوف تجد من يفهم

لغتك ويستجيب للحوار..

وطبقا لنظرية العرض والطلب.. أصبح الحجز فى الفنادق بالعافية.. وركوب الطائرات بالواسطة.. وأكوام السائحين بالكوم تغزو المدينة.. وقد لعبت الشمس الانجليزية دورها فى جذب السائحين.. ومن الواضح أنها اندمجت حبتين.. لأنها نافست شمس يوليو فى القاهرة.. مع أنها فى العادة تعانى الشيزوفرينيا.. يعنى تظهر أحيانا.. وتختفى فى معظم الوقت.. فلم تجد جماهير السائحين حلا.. سوى الهرب إلى حمامات السباحة المنتشرة جدا.. أو إلى الحدائق العامة.. وأشهرها طبعا حديقة الهايد بارك.. ومساحتها بالمناسبة ٦٣٠ فدانا بالتمام والكمال.. يعنى أكثر من عشرة أضعاف مساحة حديقة الحيوان فى القاهرة..

ومن حسن الحظ أنه لا يوجد عندهم مسئول عاقل.. يقترح ازالة الهايدبارك.. لاقامة عمارات سكنية.. لحل أزمة الاسكان التى تعانى منها العاصمة الانجليزية.. كما حدث ذات مرة عندنا.. عندما أقترح مسئول عبقرى ازالة حديقة الحيوان.. ونقلها إلى الصحراء لاستغلال مساحتها وموقعها المتميز.. فى بناء عمارات الاسكان الفاخر.. خصوصا أن المتر الآن بالدولار.. وعلى الموضة..

وفى الهايد بارك.. يتجول السائحون وتستلقى السائحات بالشورت الساخن.. والميكروجيب الجرىء.. يكشف عن السيقان المسحوبة بعناية.. وعلى عينك ياتاجر.. وكأن هناك اتفاقا بين حزب الجنس اللطيف.. على الرشاقة وقوام غصن البان.. وهو اتفاق سرى وغير مكتوب.. يشبه تلك الاتفاق بين مذيعات التليفزيون عندنا.. على الالتحاق بحزب أشجار الجميز..

وقد تعرفت فى الهايد بارك على بنت ايرلندية رقيقة.. ولعبت الرومانسية دورها فى هذا التعارف.. الذى تم باسلوب عصرى.. نظرة.. فابتسامة.. ففاصل ردح ايرلندى.. فعزومة على الغداء بالشىء الفلانى..

وميزة البنت الايرلندية.. أنها بنت بلد جدا.. صعيدية خالص.. مستعدة لكى تبيع هدومها من أجل سيادتك.. وبشرط أن تكون حضرتك جدعا

وشهما أيضا.. ولكن لو اكتشفت أن حضرتك نذلا ولامؤاخذة.. فإنها لن تبكي وتغنى ظلموه.. لكنها سوف تضربك بالمطواة قرن الغزال.. وتفضحك بجلاجل.. وتقتلك لو لزم الأمر..

وقد أحببت صديقتي سوزى الايرلندية.. منذ غداء العمل الأول.. وقلت في نفسي أنني مستعد لكي أهجر حياتي كلها.. وأن أبدأ معها من جديد.. ومن أول السطر.. فالبنت جمال وحياء وخفة دم.. ثم أنها محتشمة متحفظة.. وإذا كان الميكروجيب قد ساهم في ارساء دعائم الوحدة الأوروبية.. وخلق حالة من التفاهم بين الشعوب.. فصار الزى الرسمي للجنس اللطيف هناك.. فمن المؤكد أن صديقتي سوزى موضة قديمة.. ضد كل أشكال الوحدة والاتحاد.. فالجونلة تغطى الكعبين.. وفوق البلوزة بلوفر خفيف يغطى الذراعين..

وراحت سوزى تحكي لي عن الانجليز الذين لا تحبهم.. وتروى أحدث نكتة عن جلالة الملكة.. وفضائح أولاد جلالة الملكة.

وبينما تحكي شهرزاد.. وأنا سعيد فرحان.. والجو رومانتيكي جميل.. ورذاذ المطر الخفيف يضفى شاعرية على الحكاية.. فجأة تنقلب الأحوال.. فيتوقف المطر الشاعرى.. وتحل الشمس ساطعة ساخنة.. فإذا بالبنت الايرلندية المحتشمة.. تتبدل من حال إلى حال.. تخلع هدومها قطعة قطعة.. في عرض استربتيز من النوع المجاني . وفي لحظات تمددت أمامي عارية.. لا جونلة ولا بلوفر ولا بلوزة ولا فانلة.. و.. ولا حاجة أبدا.. فقط مايوه صغير يشبه المايوه الرجالي . ومن أصغر نمرة..

الخيبة القوية.. أن جميع من بالحديقة... وبدون استثناء.. رجال ونساء.. شباب وعواجيز.. قد فعلوا مثل سوزى المحتشمة.. فخلعوا ملابسهم وتمددوا زلط ملط في الحديقة.. وبينما أنا أحاول استيعاب المسألة.. وفهم الموقف.. قالت لي سوزى إنها تفضل «التوبلس» في هذه الشمس المشرقة..

و«التوبلس» يعني موضة النصف الأعلى العريان.. عريان من كل شيء.. ماعدا ورقة توت مكسوفة تستر النصف السفلي.. قالت لي سوزى إن الموضة ليس لها علاقة بالأدب.. أو قلة الأدب.. لكنها موضة صحية مفيدة

للجسم البشرى..
وقد بدأت استوعب المسألة.. واستكشف الموقف حولى.. وقد استلقت بالقرب منى بنت فاجرة عريانة. فقلت لها: فعلا الموضة مفيدة وصحية جدا.. تجعل البنى آدم قوى الملاحظة.. حاد النظر.. خبير فى علم الأجناس عالم بأمور التشريح.. وعلم الجمال..
فقالت لى: أقصد أن من حق الجسم البشرى أن يتنفس.. وأن يستمتع بالشمس.. وأن يعرض مسام جلده للهواء النقى.. للاستفادة من فيتامين «هـ».. وهذا الفيتامين بالذات له علاقة بالخصوبة والحيوية.. وتواصل الجنس البشرى..
قالت البنت الايرلندية المحتشمة سابقا.. إن الشعب الانجليزى متخلف جدا.. لأنه يكتفى بالتوبلس وخلاص.. ولا يتطور أبدا.. فى حين أن الفرنسيين أكثر تطورا.. لأنهم يؤمنون بالمذهب الطبيعى.. وهناك مليون فرنسى.. يذهبون سنويا.. لقضاء العطلات.. فى قرى خاصة اسمها قرى الطبيعيين.. وفى هذه القرى يخلعون ملابسهم تماما.. ويتحررون من كل شىء.. ويتجردون حتى من ورقة التوت الهايفة.. فيذهبون للسينما والسوبر ماركت.. ويلعبون الكوتشينة والتنس.. ويركبون المواصلات العامة.. ويتفسحون بالدراجات والقوارب البخارية.. وكلهم زلط ملط.. يامولاى كما خلقتنى.. رجالة وستات.. وأحيانا على سبيل التغيير والزهق.. يدهن الواحد منهم جسمه بالألوان الطبيعية.. أحمر وأزرق وأصفر.. وقد لاحظ علماء الاجتماع.. أن معدلات الجريمة قد تقلصت جدا فى القرى الطبيعية.. فقلت لها إننى أفهم ذلك طبعا.. لانه لا يوجد حرامى عريان.. لأنه لن يستطيع أن يخفى المحفظة المسروقة.. ثم انه لا يوجد فى القرية هدوم وحبال غسيل.. لكى يقصها الحرامى ويسرقها..
وبينما سوزى الايرلندية تحكى وتتحمس.. دفاعا عن قضيتها.. تمددت بالقرب منى الأخت الخواجاية الفاضلة.. وهى عريانة توبلس.. تتقصع وتتمطع.. وفى يدها دماغ حبيب القلب.. وهى تطبع وتطرقع القبلات الملتهبة.. وأخونا مشغول عنها.. غرقان لشوشته فى الجرنال.. عامل تقيل

حضرته.. تقولش حسين فهمي اسم الله.. مع أنه يشبه وحيد سيف.. وإذا كان حضرته تقيل هكذا.. فماذا عن البيت.. ومن المؤكد أنه تقيل في البيت أيضا.. وإلا بماذا نفسر قلة العيال.. والاحصائيات تؤكد تدهور معدلات الخلفة والانجاب.. رغم التويلس وفيتامين «هـ».. واحجام الجيل الجديد عن الزواج أصلا.. وكأنه زبون مستديم لبرامج الست كريمة مختار.. وزيرة السكان التليفزيونية.. والمسئولة الأولى.. عن زيادة الخلفة في مصر..

وأتفرج على ما يدور حولي.. وأنا لايص.. والكل هايص في حالة التويلس.. ولا أملك سوى النظر للسماء.. أدعو على اخونا التقيل البارد والذي يشبه وحيد سيف.. والغارق في الجرنال.. ولا تحركه القبلات الساخنة.. التي تحرك الحجر..

قالت لي الأخت المتحمسة تحاورني: إن الهدوم اختراع عتيق.. يصلح لعصر الجواري والحريم.. والتويلس اكتشاف متطور.. يناسب ثورة الكمبيوتر والليزر.. والدنيا في حالة تغير مستمر.. والأفكار الجديدة تتطلب الحماس والصبر.. وعلينا أن ندعو للموضة الطليعية الجديدة.. التي سوف تغزو العالم بإذن واحد أحد..

قلت لها: إن الفكرة لا تبدو عملية أبدا. وهي اكتشاف قديم بالمناسبة.. من اختراع المرحومة جدتي في غابات افريقيا.. تماما مثل موضة فردة الحلق التي يلبسها الرجال الآن.. على أنها موضة أوروبية.. في حين أن جذورها تعود إلى افريقيا أيضا.. والمشكلة أن اختراعاتنا تبدو في نظركم بدائية وتخلفا.. في حين أن اختراعاتكم تبدو أوريجينال وتجديدا.. ومع هذا لو طبقنا الفكرة.. فسوف تغلق مصانع النسيج أبوابها.. وسوف يفلس الأخ بيير كاردان.. وهو ما لا يصح ولا يجوز..

قالت لي صاحبتي: إنكم تأخذون عن الغرب كل شيء.. وعليكم الآن التخلص من بيير كاردان.. وإيف سان لوران.. وكافة أشكال الاستعمار «الهدومي».. وعليكم أن تصبحوا شعبا بلبوصا.. يستمد قراره من طبيعته ووفقا لظروفه الخاصة..

قلت لها: إن الحكاية تبدو مغرية بالفعل.. ليس اغراء جنسيا لا سمح الله.. ولكنه اغراء سياحي.. وسوف يأتي السياح من كل مكان.. لرؤية خالتي سيد قشطة.. وهي تتعرى توبلس.. بعد أن تضع لمساتها الشرقية. على الموضة الشفتشي.. وبدلا من أن تتعرى السنيورة لتأخذ حمام شمس.. سوف تتعرى مدام سيد قشطة لتأكل الفسيخ.. وتعمل محشي في الحدائق العامة.. وهي مناظر سوف تساهم في زيادة الدخل السياحي.. ولكن هناك مشكلة.

ومن المؤكد ان السادة الأغنياء.. وهوانم الطبقة الراقية.. سوف يقاطعون الموضة الجديدة.. التي تساوي بين الرؤوس.. فإذا مشيت بين قطيع من التوبلس.. فلن تعرف فلانة هانم.. من خالتي فلانة.. و لهذا سوف ترفع الهوانم راية العصيان.. والواحدة منهن تفضل أن تلبس الفراء في عز الصيف.. مادام من تصميم بيير كاردان.. على سبيل التفاخر والتباهي..

و.. احتدمت المناقشة بيني وبين صاحبتي المتحمسة للموضة الصيفي خالص.. في حين ظل الأخ وحيد سيف على جموده وبروده.. واستمتاعه المريب بالجرنال في يده.. وارتفع الصراخ بيني وبين صاحبتي.. كدليل على الحماس في المناقشة.. أقول لا.. تقول نعم.. أقول يمين.. تقول شمال.. «اقول طور».. تقول احلبوه..

و.. أخيرا قررت العودة للجذور.. واختصار وقت المناقشة.. وصولا لوحدة الهدف.. فخلعت رجل الكرسي.. وجريت وراء صاحبتي المتحمسة.. محاولا اقناعها بالطريقة الأسهل.. وبالمرة وفي طريقي.. جريت وراء جميع الأخوات من قبيلة التوبلس.. محاولا اقناعهن.. أما الأخ البارد جدا.. وحيد سيف.. فقد أخذ مني علقة مناسبة.. بعد أن خطفت الجرنال من يده.. ومزقته تسعين مليون قطعة!!

شرطة مكافحة الصحافة

١٨



طوال رحلتى فى لندن الجميلة.. وربما لأسباب فنية.. لم أحلم مرة واحدة بالانجليزى.. ولم أشاهد فى المنام.. بنات لندن اللهلوبات.. وحدائق لندن التى ترد الروح.. مع أن الرحلة بالأسترليني.. وجميع أحلامى كانت بالعربى الفصيح. وبالصوت والضوء.. فشاهدت مواصلات القاهرة.. وزحام شبرا.. وحفر ومطبات وسط البلد.. وحلمت طبعا بالبوليس المصرى النشيط.. وفى هذه النقطة بالذات.. لعبت بى الهواجس. وهاجمتنى الكوابيس. وطاردتنى أحلام اليقظة.. والسبب اننى قرأت قبل النوم «جرنال صغير» فى حجم كراسة الرسم.. لكنه طويل اللسان جدا.. كقطار أهوج مندفع.. يدهس من يقف فى طريقه.. وقد فتح النار على الجميع.. وعلى الكبار بوجه الخصوص.. فلم يسلم من لسانه أحد.. وميزة المجتمع الانجليزى. أن الكبير عندهم ليس على رأسه ريشة.. وقد خفت وبصراحة.. أن يقع الجرنال فى قبضة بوليس اسكتلانديارد.. أو فى يد مخبر صاحى.. وربما بيننا وبينهم اتفاقية لتسليم القراء.. إسوة بتسليم المجرمين.. وربما عندهم مباحث مخصوصة لمكافحة القراء.. أو قانون جديد للصحافة.. يعاقب القراء.. على اعتبار أن القراءة مسئولية كل مواطن.

وعلى أى حال فقد قمت بالواجب فى المنام.. فمزقت الجرنال ومضغته. وبلعته مع شربة ميه.. تحسبا للظروف.. ومن باب الاحتياط.. وحتى لا تقع الفأس فى الرأس.. فأقضى بقية منامى.. أكسر زلط ليمان طره الانجليزى.

وفى الصباح.. عبرت عن مخاوفى لصديقتى سوزى الايرلندية.. التى ضحكت من عبطى.. وخيبتى الثقيلة.. وقالت إن ما قرأته هو جرنال تابلويد. يباع علنا فى الطريق.. وهو الجرنال الشعبى للفضل لدى جماهير القراء.. وإذا كان جرنال الجارديان الرصين والمحترم.. يوزع ٣ ملايين نسخة يوميا.. فإن جرنال الميرور الشعبى يطبع ٨ ملايين.. ويقرأه الجميع.. الكناس فى الشارع. وحضرة رئيس الوزراء شخصيا.

ميزة جرنال التابلويد.. مثل الميرور.. أو الصن. أو الديلى ميل.. أن لغته سهلة. ومقالاته مختصرة ومفيدة.. يخاطب القارئ المستعجل فى المترو والاتوبيس.. يشرح

بسرعة تفاصيل الأمور.. ويتجاهل عمدا القضايا الدولية المعقدة.. ويفضح الفساد والمفسدين.. ويركز على فضائح الكبار.. فالصحافة هي مرآة المجتمع بحق وحقيقي.. وجرائد التابلويد مسئولة عن توجيه الرأى العام.. خصوصا في القضايا الداخلية.. وهي تسهم بوضوح في نجاح الحزب.. ووصول رئيسه إلى نمرة عشرة دوانتج ستريت.. المقر الرئيسي لرئيس الحكومة.. كما تلعب دورا حقيقيا في سقوط الحزب الآخر.. والسبب أن رسالة جرنال التابلويد.. موجهة إلى رجل الشارع.. بأسلوب بسيط.. وتستخدم تعبيرات دارجة.. وحكايتها مع حزب العمال في الانتخابات الماضية معروفة.. فقد كانت جميع استطلاعات الرأى.. تشير إلى اكتساح العمال للانتخابات.. بزعامة الوجه الجديد واللامع وقتها.. نيل كينوك.. وخصوصا أن حزب المحافظين كان يعانى من الترهل والخلافات الداخلية.. بعد اعتزال الحيزبون مارجريت تاتشر.. ولكن جريدة الديلى تلجراف.. التى تدافع عن المحافظين.. شنت حملة قاسية ضد حزب العمال.. واتهمته أنه ينوى زيادة الضرائب.. على حساب الطبقة المتوسطة.. بدليل بعض التصريحات الغامضة لرئيس العمال.. الذى لم يهتم بالرد.. وتفنيد آراء الجريدة.. فتدهورت فجأة شعبية الحزب قبل أيام من الانتخابات.. وفاز المحافظون بزعامة جون ميجور.. واضطر حزب العمال إلى التخلص من زعيمه الكسلان نيل كينوك.. واستعان بزعيم جديد.. عسى أن يكسب الانتخابات الجديدة.. والتى تدق الأبواب بعد شهور..

انبسطت جدا من الحكاية.. وسألت صديقتى سوزى.. عن مصادر تمويل جرنال الحزب.. وعما إذا كانت الجماهيرية تساهم في الدعم.. أم أن المنظمة هى الممول الرئيسى.. أم أن الجرنال يتلقى فلوسه مباشرة من الأمريكان.. إسوة ببعض الجرائد إياها.. التى ترفع لواء المعارضة.. ولا تستحى من أن تمد يدها بحجة الدعم والتمويل..

دقت سوزى صدرها الجميل بيدها الرقيقة.. وقالت إن ذلك يدخل في باب الخيانة والعمالة والاسترزاق وخداع الجماهير.. وعندنا فلوس الأحزاب الانجليزية.. وميزانيات الجرائد واضحة وعلى المكشوف.. وإذا ثبت أن الحزب أو الجرنال.. قد فتح مخه.. فإن المصير هو السجن والفضيحة بجلاجل.. ثم أن الجرنال يكسب من التوزيع والاعلانات.. فلا داعى إذن لزيادة الخير خيرين.. ولا تنس أن الديمقراطية ليست مجرد كلام وشعارات.. فالديمقراطية سلوك وممارسة واحترام النفس قبل أى شىء.. واستقلال الجرنال ضرورى.. لكى يتحرك بحرية في الساحة.. وإذا كانت على رأس الجرنال بطحة.. فإنه لن يستطيع مواجهة الفساد.. ولن يستطيع أن يخوض معركة

ضارية.. كتلك التى خاضتها جرائد التابلويد.. ضد مارك تاتشر.. ابن رئيسة الوزراء الحديدية سابقا..

فقد اكتشفت الصحافة.. أن الابن المدلل.. الغرقان لشوشته فى سباقات السيارات والموتسيكلات.. قد انتقل فجأة لخانة رجال الأعمال.. وأن جيبه منفوخ.. ويمتلك عدة شركات ضخمة.. فهاجت الصحافة.. وفضحت تاتشر وابنها الوحيد.. ووصل الأمر إلى القضاء.. حيث يواجه مارك تهمة الفساد والتربح.. ويواجه أيضا احتمال مصادرة أمواله.. بل ويواجه السجن بعد ذلك.. إلى جانب عقوبة الاحتقار والازدراء من المجتمع.. الذى لا يسمح بتلك الجرائم الصغيرة..

ضحكت حتى وقعت على قفاى.. وقلت لسوزى المجنونة.. الا تلاحظين.. أنكم معشر الغرب.. تحبكونها حبتين.. مع أن المسألة عادية جدا.. وعندنا فى عالمنا الثالث والثلاثين.. من حق الموظف العام أن يعمل.. ومن حق الابن أن يعمل أيضا.. وهناك مسئولون.. ملء السمع والأبصار.. ويقبضون من شغلهم الشيء الفلانى.. ومع هذا يؤسسون شركات منافسة باسم الابن أو الزوجة أو زوجة الابن.. ويتولى حضرة الوالد.. إدارة الشركة العامة صباحا.. وادارة الشركة الخاصة بعد الظهر.. وإذا سألت الواحد منهم.. قال لك وما ذنب ابنى إذا كان يهوى التجارة وشغل البيزنس.. ومن غير المعقول.. أن أكون فى موقعى لسنوات طويلة.. وأن يحرم ابنى من الانطلاق والمشاركة.

باختصار الوظيفة العامة عندنا.. مجرد برستيج. ولضمان المعاش ومكافأة نهاية الخدمة.. أما الوظيفة الحقيقية.. فهى التى نمارسها بعد الظهر.. لأن المسئول عندما يحال للمعاش.. فمن غير المعقول أن يلعب طاولة.. أو يقمع بامية.. أو يمارس الجولف كما تفعلون أنتم.. وإنما يمارس نفس العمل من خلال الشركة الاحتياطى.. التى أسسها باسم الأنجال..

الغريب فى الأمر.. أن الحكاية بدأت بصغار الموظفين.. بحجة تحسين الدخل.. ثم امتدت للكبار.. فصارت ظاهرة.. وأصبح الواحد منا له وظيفة رسمية.. و.. عشرة تحت الأرض..

قالت سوزى بانبهار: إذا كنتم تدمنون الشغل هكذا.. فهذا يعنى أن بلادكم من أغنى بلاد الدنيا.. وأتمنى زيارة بلادكم العجيب.. لأعاين على الطبيعة.. وأتعلم كيف تدور الأمور.. وكيف أن الموظف المصرى.. يسبق اليابانى والكورى فى حبه وتفانيه واخلاصه للعمل.

قلت لها أننى مستعد لدعوتها فورا.. بشرط ألا تكتب ما تشاهده فى صحافة التابلويد طويلة اللسان.. لأنها صحافة غير مؤدبة.. تساهم فى خراب البيوت العامرة.. وإذا كانت قد تصدت لمارك تاتشر.. لأنه استغل وظيفة ماما.. فما ذنب أولاد جلالة الملكة.. الذين صاروا ملطشة حقيقية لصحافة التابلويد المثيرة..

قالت سوزى بهدوء: إن الصحافة كشفت فضائح العائلة المالكة.. ولم تخترع تلك الفضائح.. بدليل أن بعض أفراد وأصدقاء العائلة يمد الصحف بالجديد من الفضائح.. وفى حرب تشارلز-ديانا.. ساهم الطرفان بمد الصحافة بأسرار الطرف الآخر.. وفى الحقيقة فإن العائلة المالكة قد ارتكبت جميع الأخطاء التى لا تقع فيها عائلة بريطانية محترمة.. فلم تعد مثالا للمحافظة على الأصول والتقاليد الراسخة.. وفى الماضى القريب.. هاج المجتمع لطلاق الخالة مارجريت شقيقة الملكة.. الآن صار الطلاق هو العلامة المميزة لتلك العائلة.. وليست مصادفة أن الأبناء كلهم طلقوا بالثلاثة.. أو فى سبيلهم لذلك.. وبالإضافة إلى تشارلز ولى العهد الذى انفصل عن زوجته ديانا الجميلة.. فإن الشقيق أندرو قد طلق زوجته وأم بناته سارة.. والأخت آن حصلت على الطلاق.. بعد أن ارتبط زوجها مارك فيلبس بمذيعة تليفزيون مشهورة.. ويتبقى الابن الثالث ادوارد.. الذى لم يتزوج بعد.. ويعد من عزاب أوروبا المشهورين..

وإذا كانت جلالة الملكة قد طالبت الصحافة بأن ترفع يدها عن آخر العنقود.. فإن الصحافة فى المقابل طالبت جلالة الملكة بالحفاظ على سير وسلوك ادوارد.. لأنه لا حصانة لمنحرف.. أو أمير يلعب بذيله.. خصوصا أن الموضة الآن بين أمراء أوروبا.. هى الجرى وراء الجميلات من عارضات الأزياء بالذات.. وارتكاب الفضائح بالجملة..

ومصمصت سوزى شفتيها مثل زينات صدقى.. وهى تتحسر على ضياع أخلاق الملوك.. وقالت: هل تصدق أن تشارلز ولى العهد.. يصادق علنا امرأة متزوجة.. ويفضلها على زوجته الجميلة.. والتى يحبها الناس ويحترمونها.. وهل تتخيل أن ألبرت أمير موناكو.. والذى كان مثل القطة المغمضة.. يقضى وقته متنقلا بين عارضتى الأزياء كلوديا شيفر الألمانية.. وناعومى كامبل الصومالية.. وهل عرفت أن فردريك أمير الدنمارك.. والذى لم يخرج من البيضة.. يعاشر عارضة أزياء سويدية اسمها كاتيا.. وهاكون أمير النرويج الطيب يرتبط بعارضة الأزياء كاترين.. وحتى فيليب أمير أسبانيا.. وابن الأصول.. متعلق بعارضة أزياء أمريكية مغمورة اسمها جيجى.. فهل تصدق كل ذلك.. وإذا كانت الصحافة ترى هذه الأمور والأفعال.. وترى الصور الفوتوغرافية الفاضحة للأمراء.. فهل تصمت أم تحذر الرأى العام من ملوك

المستقبل؟!

قلت أهدى، من غضبها من الأخوة الملوك: لكن الصحافة زودتها حبتين.. بدليل ذلك الهجوم الحاد على الأمير فيليب زوج جلالة الملكة اليزابيث..

قالت بحدة: الأمير فيليب غلطان.. ويجب أن يعترف بخطئه.. فقد ذهب لافتتاح مصنع جديد فى اسكوتلندا.. ومن الواضح أنه أعجب بالمصنع.. وبدلا من أن يقول كلمتين كويسين فى حق الاسكتلنديين.. حاول الاستظراف.. وسأل مدير المصنع بسماجة: كيف نجحتم فى التوقف عن شرب «الاسكوتش» يعنى الويسكى الاسكتلندى الفاخر.. وتفرغتم لبناء المصنع؟!

وعلى الفور رد مدير المصنع بأن ملاحظة الأمير غير مفهومة.. ومن الأفضل له أن يتعلم الانجليزية إن كان لا يجيد الكلام.. صحيح أن الشعب الاسكتلندى ينتج الويسكى.. ولكن من أجل الانجليز السكارى.. ثم ان الاسكتلنديين بالذات مشهورون بحب العمل والتفانى فى الانتاج.. عكس الانجليز الكسالى..

و.. لم يعلق الأمير.. لكنه أكد للصحافة عندما سألته.. بانه لم يكن يقصد اهانة الإسكتلنديين.. وان المدير لم يفهم النكتة.. فسارع المدير يعلق فى الصحف. إننا شعب يحب النكتة بشرط أن تكون خفيفة الدم.. ومن الواجب على سمو الأمير قبل أن يتورط فى اطلاق نكتة.. أن يصدر بيانا يعلن فيه أنه سيقول نكتة..

وهكذا نكأ الأمير باستظرافه جرحا حقيقيا.. وجدد العداء التقليدى بين الانجليز والاسكتلنديين.. وكما تعرف فإن بريطانيا العظمى تضم انجلترا واسكوتلندا وايرلندا وويلز.. ويعانى الاسكتلنديون بالذات من الشعور بالاضطهاد.. ونكت الصعايدة فى مصر.. تسمعها فى قلب لندن.. وبدلا من الصعيدى فى النكتة.. هناك الاسكتلندى الطيب والساذج والغشيم أحيانا..

قالت صديقتى سوزى تضع النقاط فوق الحروف: إن لدينا قواعد مستقرة.. وعندنا حرية صحافة حقيقية.. ولدينا ديمقراطية راسخة.. عمرها عشرات السنين..

قلت لها نعم.. بدليل الهايدبارك.

قالت كالشريك المخالف: الهايدبارك راحت عليه.. وصار الخطباء يتكلمون فى المسائل الفارغة.. والهايدبارك الجديد هو التليفزيون.. الذى هو فرجة حقيقية.. فأنت تفتح التليفزيون فترى كل شىء.. وعلى عينك ياتاجر.. وتناقش جميع القضايا.. بدون حرج.. أو خوف.. والتليفزيون عندنا تليفزيون رأى.. وهو يختلف عن بعض التليفزيونات التى تطبل وتزمر.. والمذيع عندنا لا يقرأ من الورقة أو جهاز المونيتور

أمامه.. لكنه مذيع مثقف وواع وحاضر.. وذلك لأننا نختار الأصلح لوظيفة المذيع.. ونستعين باستطلاعات الرأى.. والمذيع المرفوض جماهيريا يستبعد فورا.. ولا نعرف أسلوب المجاملات في الاختيار..

وافتح نشرة الأخبار.. تجد أن الخبر الأول فيها هو ما يهم الناس فعلا.. وليس طبقا لما يهم الحكومة.. ومع أنه تليفزيون رأى.. إلا أنه لا ينحاز لحزب من الأحزاب.. وإذا أخطأ حزب أو مسئول.. فضحه التليفزيون في التو واللحظة..

عند هذا الحد.. حاولت انهاء المناقشة.. بعد أن شعرت أن سوزى تتجاوز الخطوط الحمراء.. فلجأت إلى حيلة معروفة.. وهى أن أتثاءب وأتناوم.. عسى أن تصيبها العدوى فتنام هي الأخرى.. لكنها شدت قامتها كدليل على تحمسها.. وحكت لى حكاية اضراب عمال النظافة. بسبب مطالبتهم بزيادة العلاوة السنوية.. فتكومت الزبالة في الأكياس في الطرقات تسد الطريق.. في الوقت الذى دارت فيه المفاوضات الشاقة.. لحل الأزمة التي شعر بها كل بيت.. فإذا بالأمير تشارلز ولى العهد.. يطلق تصريحا يعبر فيه عن قرفه من تكدس الزبالة في الشوارع.. ويطالب العمال بضرورة العودة لأعمالهم من جديد.. وهاجت الصحافة.. ونشرت تصريحا مضادا لرئيس نقابة الزبالين.. يرد على الأمير.. وقال رئيس النقابة المحترم.. انه يجب على الأمير تشارلز أن يتعلم متى يتكلم.. وأن يلزم حدوده..

و.. لم يطق تشارلز.. الذى التزم حدوده.. وعاد لقواعده من جديد.. وطبقا للقواعد.. يتكلم ولى العهد في الموضة وفي الفن والثقافة.. بدون أن يتورط في اصدار أحكام قاطعة.. وممنوع منعا باتا.. طبقا للدستور أن يتورط في شغل السياسة.. واضرابات العمال..

و.. من جديد.. عدت أتثاءب بكسل شديد.. عسى أن أقنع سوزى بالتوقف عن مسك سيرة الحكام.. ومن الواضح أننى نجحت وبامتياز.. لأننى بعد برهة.. لم أعد أسمع صوتها نهائيا.. بعد أن رحت في سبات عميق.. أحلم بالقاهرة.. وبالعربى الفصيح..!

19

اميرة ويلز
مدام حنفى سابقا



لولا البخت والنصيب.. لكانت الليدى ديانا الآن.. تحمل لقب مدام «حنفى».. وتعيش معنا فى قلب المنيرة.. تأكل وتشرب.. وتسعى فى الأسواق.. تركب المواصلات العامة.. وتعانى أزمة الاسكان.. وتقف فى الطابور تستجدى وتستعطف الست الناظرة.. من أجل قبول العيال فى الحضانة..

وأبصم بالعشرة.. أنها كانت ستعيش أسعد حالا.. وأهدأ بالا.. وأكثر استقرارا وأمانا فى حياتها العائلية المتواضعة.. بعيدا عن بهدلة الجرائد.. وتطفل ولكاعة عدسات المصورين المتنطعين فى كل خطوة.. المترصدين لها على كل باب تذهب إليه..

و.. مسكينة ديانا.. عاشت حياتها بالمقاس.. وتحت الأباجورة.. كل شيء مكشوف ومحسوب عليها.. إذا تحركت رصدوا خطواتها.. ولو تكلمت علقوا وافتوا بدلا منها.. وإذا صمتت وسكتت حسبوا أنفاسها.. وإذا توترت وبكت قالوا أزمة عاطفية.. وإذا ارتبكت قالوا جليطة وقلة ذوق.. أما لو ضحكت فياداهية دقي.. فالضحك من غير سبب قلة أدب.. وخروج على الأصول والعرف والأتيكيت وتقاليد العائلة المالكة.. التى تفضل الشوكة والسكين فى الأكل والكلام والضحك والمشى والسكون والحركة..

وطوال ١٢ عاما.. وأنا أحمل هم ديانا.. وأتابع الخيبة التى وضعت نفسها فيها..

إذ يشاء الحظ ومحاسن الصدف.. أن أكون من جيران الليدى ديانا. قبل أن تصبح ليدى.. عندما كان اسمها ديانا حاف. وعندما كانت تسكن فى نفس الحى الذى أقمت فيه فى قلب لندن أواخر السبعينيات.. حى «إيرلس كورت».. بل وفى نفس الشارع «أولد برومبتون رود»..

ولوكانت البلية قد لعبت.. لكنت الآن عريس ديانا المحترم.. بدلا من العريس الذى لا طعم له.. ولا لون ولا رائحة.. الذى يهجر بيت الزوجية بالاسبوع والاثنين.. ليلعب «بولو» مع أصحابه.. ويفضل ركوب الخيل على مصاحبة زوجته الرقيقة.. التى أغراها بالفلوس والحسب والنسب.. فتخلت عن الرومانسية القديمة.. وذكريات حب الطفولة. لتتدفع فى جوازة محسوبة بالورقة والقلم والكمبيوتر..!!

فوالد ديانا.. وعلى طريقة الأفلام العربية.. اللورد «إيرل أوف سبنسر» من أصحاب الفخامة الانجليزى المفلسين.. الذين تنطبق عليهم مقولة عزيز قوم ذل رجل يحمل لقبا نبيلا.. لكنه لا يملك ثمن عشائه

وفى بريطانيا التى غابت عنها الشمس من زمان بعيد.. كل شيء بالفلوس.. حتى كرامة الإنسان.. ولو كان جيب حضرتك خاويا كحضرتنا ستنام خفيفا.. حتى لو كنت جون ميجور شخصيا . أما لو كنت تحمل فلوسا من أى نوع.. خاصة الاسترلينى.. أو لو كنت من ذوى الشيكات وكروت الائتمان البنكية.. فسيشيلونك على كفوف الراحة.. ويقفون لك «زنهار» فى الرايحة والجاية..

وقد كان اللورد سبنسر من النوع الأول.. نفخة كداية.. فقر وعنطظة.. ورث لقبا نبيلا.. لكن جيوبه أنظف من القيشانى المستورد.. ثم إنه يهوى أطايب الأكل والشراب.. وله فيه صولات وجولات.. وفوق هذا وذاك.. فهو رجل مزواج.. طلق أم ديانا الطيبة.. وتزوج من المدام حيزبون.. وعاش على فلوسها . يسهر فى البارات.. ويشرب على حساب المدام..

ولهذا تركت ديانا بيت الوالد مبكرا.. واشتغلت مدرسة أطفال فى حضانة متواضعة.. واستقرت معنا فى ايرلس كورت.. تشترك مع اثنتين من صديقاتها فى شقة مشتركة.. يتقاسمن الايجار والكهرباء . وساندوتشات الهامبورجر.. وحساب البقال..

ولأنها ابنة لورد. وبطبيعة الطبقية فى المجتمع الانجليزى فالمقامات محفوظة.. ومن الطبيعى أن يسمح لديانا بدخول القصر الملكى فى الحفلات العامة وحضور الولائم والأفراح.. حيث العشاء مجانا.. وبالمرة تتفرج على

خلق الله الرايقة.. من العائلة المالكة وعائلات النبلاء واللوردات والأغنياء..

في واحدة من هذه الحفلات تعرف تشارلز بديانا.. خاصة أن تشارلز كان يبحث عن عروسة يكسر بها حاجز النحس والعزوبية.. بعد أن رفض عدد من بنات الأسر الكريمة الارتباط به والدخول في سجن الملكية والتقاليد التي أكل الدهر عليها وشرب ونام..

و.. بدأت الصفقة التي شارك فيها السيد الوالد.. ومن الواضح أنه تأثر باللورد حسن الامام.. ركع تحت قدمي ابنته وهات ياعياط. متوسلا ضارعا.. أن تتزوج من تشارلز الغني.. وبعد أن حجزوا على العفش والشقة واليخت والرولزرويس.. وأصبحت فضيحة..

و.. ضحت ديانا بنفسها وقررت انقاذ الوالد واسم العائلة الكريمة.. فتزوجت تشارلز.. زواج منفعة يعني..

وهكذا تزوج الغراب ياوقعة سودة.. من أحلى يمامة في ايرلس كورت..

الخيبة الثقيلة.. أنني لم أكن أعرف ديانا.. مع أنها جارتي.. واكتشفت متأخرا - كما هي العادة - المصيبة بعد وقوعها.. عندما جاءت الشرطة الانجليزية.. لتفرض حراسة خصوصية على أحد بيوت المنطقة.. فسألنا وتقصينا وعرفنا أن ساكنة الشقة في الدور الأرضي.. هي ديانا عروسة تشارلز المنتظرة..

وندمت ندما شديدا.. إذ تمر الفرصة والحظ والنصيب بالبني آدم مرة واحدة في حياته.. فإن لم يغتنمها ضاعت وإلى الأبد.. وللأسف لم أنتبه للفرصة الذهبية التي مرت تحت أنفي.. ولم أدركها في الوقت المناسب.. ولو كنت أعرف أن ديانا تسكن على بعد ٢٠ خطوة من بيتي.. لعسكرت أمام بيتها.. محاولا لفت الأنظار.. وتقديم قرابين الحب والمحبة.. فهي جارتي.. والجار أولى بالشفعة..

غير أنه من المؤكد - مادامت جارتي - إنني التقيت بها أكثر من مرة.. ولم الحظ رية الصون والعفاف.. ففي ايرلس كورت قهوة «تروبادور» الشهيرة.. وهي قهوة قديمة لها طابع مميز.. يزورها أهالي لندن.. حيث القعدة رومانتيكي.. بفضل الفنانين المفلسين الذي يقصدونها بالذات.. فهي المحل

المختار للمرحوم هنرى مور النحات الأشهر فى العالم.. ثم أنها محلى المختار ايضا. فصاحبها يبيع لنا القهوة والسندوتشات بالتقسيط المريح.. تماما كمقاهى مصر. وفى «تروبادور» مارست لعبة الشطرنج مع شلتى التى تضم أصدقاء من كل الجنسيات.. منهم الأسبانى والطليانى والفرنسى والانجليزى والفنزويلى والألمانى.. ومن المؤكد أن ديانا قد مرت بالقهوة أحيانا.. ومن غير المستبعد أن أكون قد جذبت انتباهها.. لكن لخمتى مع الشطرنج . قد ضيعت على الفرصة.. ومن الضرورى أنها يئست من صدى وهجرانى.. فتركت القهوة إلى غير رجعة..

أو أكون قد التقيت بها مرة فى سوبر ماركت «سيف واى» حيث البضاعة أرخص.. البيع بسعر الجملة.. وجميع أهالى «ايرلس كورت» يقصدون «سيف واى» ومن غير المستبعد وديانا التى تعيش بمرتب متواضع.. أن تكون قد مرت «بالسيف واى».. لكن ضعف البصر والبصيرة لم يمكنانى من اكتشاف السندريلا فى الوقت المناسب..

وربما أكون قد جلست بجوارها يوما فى مترو «الأندر جراوند».. ففى المترو الانجليزى.. كل الناس تقابل كل الناس . ومترو لندن يركبه اللوردات والبهوات والتلامذة والهوانم والصياع.. ومن المحتمل أن نكون قد جلسنا متجاورين.. لكن الكابتن كيوبيد لم يلعب دوره وقتها.. بسبب البرد أو النعاس وقلة النوم.. فمر اللقاء مرور الغرباء..

وإذا كان محسوبكم سيىء الحظ لأننى لم أقابل ديانا فى الوقت المناسب.. فمن المؤكد أن حظها كان كذلك.. ولو قابلتنى وقتها.. لتغيرت ألوان حياتها تماما.. وتحولت إلى بمبى بمبى.. فأنا على الأقل لست من أصحاب الدم الانجليزى البارد.. فعندى نخوة وشهامة.. وأقدر صنف النساء.. خاصة النوع الانجليزى الهادىء الرقيق.. ولن أتركها وحدها فى البيت بالساعات والأيام.. كما يفعل زوجها تشارلز.. ولن افضل لعبة البولو عليها . لسبب بسيط اننى لا أجيد البولو.. ثم أننى لم أركب حصانا فى حياتى

ومعى سوف تتمتع ديانا بميزة اضافية.. فوق البيعة.. فلحسن الحظ أننى

معدوم الوسامة.. ولهذا سوف أشعر بالنقص والعقد النفسية.. وسوف أسعى لارضائها بكل وسيلة.. ومعى لن تعانى ديانا من مشاكل الغيرة.. لأننى لو قابلت نصف نساء لندن.. فلن تشعر بالقلق.. لأننى لن ألفت نظر واحدة منهن.. ولهذا سوف تعيش معى فى راحة واطمئنان..

ثم اننى كنت سأتزوجها زواجا طبيعيا.. على بركة الله.. كالبطيخة وبختك يا أبو بخيت.. أما تشارلز فقد أخذ ديانا على السكين.. فذهبوا بها أولا للطبيب.. ليؤكد أن صحتها عال العال.. وأنها ليست عاقرا.. وخصبة ولود.. يمكن أن تلد صبيانا وبنات.. ولهذا تزوجها.. كمصنع متحرك.. لانجاب أولياء العرش..

ولحسن الحظ أنهم فى أوروبا لا يؤمنون بحكايات الفقر والغنى.. والفوارق الطبقية.. وأسطورة الدماء الزرقاء وغير الزرقاء.. بدليل أن الأميرة ستيفانى سنيورة موناكو.. تزوجت من بائع سمك على باب الله.. وأختها كارولين تزوجت من حارسها الخصوصى.. ورومى شنيدر تزوجت من سائق سيارتها وأنجبت له ربع دستة أطفال. وناستاسيا كينسكى تزوجت من مصرى محظوظ.

ثم إن ديانا نفسها تزوجت وهى المفلسة.. من تشارلز ابن أغنى سيدة فى العالم ومن المؤكد اننى ببعض التحسينات والاصلاحات الضرورية.. سوف أتحول إلى نجم من نجوم المجتمع.. يليق بحبيبة القلب..

وأقر وأعترف.. اننى طوال السنوات الماضية.. لم أنس ديانا.. حتى بعد زواجها . وإن حاولت النسيان.. بالدخول فى تجارب حب عديدة.. جربت أن أحب الليدى ليلى علوى.. لكن انضمامها لحزب أشجار الجميز.. أفاقنى من الغفلة وسوء المصير.. فيما لو كنت تزوجتها.. فأحببت اللهلوبة شريهان.. لكنها هجرتنى وهجرت زوجها وتفرغت للفوازير.. أحببت يسرا.. لكنى ضحيت بها من أجل خاطر صديقى عادل حمودة الذى لا ينام الليل بسبب حبه لها.. أحببت لوسى.. لكنها أحبت السينما وأفلام المهرجانات والجوائز.. فعدت إلى حب ديانا..

والآن.. وقد حدث ما حدث من خلافات بين تشارلز وديانا.. وهى

الخلافات التى قد تصل إلى المحاكم وقضايا النفقة.. بعد أن أهدر تشارلز فرصة عمره.. رغم أن ديانا الرقيقة قد ساهمت فى إعلاء شأن الملكية فى بريطانيا.. بعد أن تحولت إلى معبودة للجماهير هناك.. وهى الجماهير التى أحبت العائلة المالكة.. حبا فى ديانا.. والتى أتوقع أن تسعى لاسقاط العائلة المحترمة.. إذا ما خرجت منها ديانا..

بعد هذه التطورات.. فإن المياه قد تعود إلى مجاريها بينى وبين ديانا من جديد.. وسوف أقطع تذكرة ذهاب بدون عودة.. إلى لندن.. لأعيد وصل ما انقطع.. وأضمد جراح الماضى البعيد..

ولن أنسى ما حييت.. عندما وقعت الجوازة منذ ١٢ عاما.. أن الدنيا ضاقت فى عينى، فمشيت فى شوارع العاصمة الضبابية.. أغنى ظلموه.. وهم يزفون فى كاتدرائية سان بول الشهيرة.. الليدى ديانا على عريسها البرنس تشارلز..

وفى أخر الليل.. صعبت على نفسى . فبكيت من القلب على كتف عمنا محمود السعدنى. ولم يوقفنى عن البكاء.. سوى بكاء السعدنى . وهو يعترف لى أنه عاشق صبابه هو الآخر.. وأنه يحب الحاجة اليزابيث.. ملكة بريطانيا شخصيا.. غير أنه يكتم فى قلبه.. عملا بحكمة فريد الأطرش.. وهى الحكمة التى اتخذتها شعارا فيما بعد.

الحب من غير أمل.. أسمى معانى الغرام !

عاصم حنفى .

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ١٩٩٩/٩٦٤٧

I S B N 977 - 01 - 6247 - 7



المعرفة حق لكل مواطن وليس للمعرفة سقف ولا حدود ولا موعد تبدأ عنده أو تنتهي إليه.. هكذا تواصل مكتبة الأسرة عامها السادس وتستمر في تقديم أزهار المعرفة للجميع. للطفل . للشاب. للأسرة كلها. تجربة مصرية خالصة يعم فيضها ويشع نورها عبر الدنيا ويشهد لها العالم بالخصوصية ومازال الحلم يخطو ويكبر ويتعاظم ومازلت أحلم بكتاب لكل مواطن ومكتبة لكل أسرة... وإني لأرى ثمار هذه التجربة يانعة مزدهرة تشهد بأن مصر كانت ومازالت وستظل وطن الفكر المتحرر والفن المبدع والحضارة المتجددة.

سوزان مبارك